أسباب زواج النبي صلى الله عليه وسلم بأمهات المؤمنين

ومواجهة افتراءات المغرضين

دكتور
عبد العظيم ابراهيم محمد المطعني
جامعة الأزهر

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت : ٤٨٢٧٨٥١

وإذا أراد الله نشر فضيلةٍ

طُوِيَتْ أتاح لها لسان حسودِ

لولا اشتِعَال النارِ فيما جاورت

ما كان يُعْرَفُ طيبُ عَرْف العودِ



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

أثار الكتاب الذى كانت تُـدّرِسُه الجامعة الأمـريكية فى القاهرة لطلابها من المسلمـين وغيرهم، والذى وضعـه ماكسـيم رودنسون اليهودى الأصل، وتعـرض فيه للطعن فى الرسول الكريم مـحمد ﷺ، وكان ممـا ركز عليـه فى طعنه اتهام النبى ﷺ بالـشهوانـية والتمرغ فى الملذات الجنسية، مـتخذاً من تعدد زوجاته ﷺ وسيلة لذلك الطعن.

أثار ذلك الكتـاب ضـجـة عـارمـة فى الأوساط الإعـلامـيـة والفكرية، وتصـدى له بعض الغيـورين على الإسـلام، وكشـفوا مافيه من زيف، ثم أسدل عليه الستار وكأن شيئاً لم يحدث.

ومحتويات الكتاب ليست جديدة، فقد أثارها من قبل المبشرون والمستـشرقـون، ولغطوا فيهـا كثـيراً، ولكن الجـديد فى الأمر أن تمارس هذه المهمة الجامعة الأمـريكية فى مصر، وتقوم بالطعن فى حقائق الإسـلام وأصوله وسيرة رسوله، وتجـعل من هذه السموم مادة علمية ثقـافية يستذكرها الطلاب ويؤدون فيهـا امتحاناً هنا فى مصر، وليس فى أمريكا.

ومما أثار العجب رد الفعل، الذى اكتفى بمصادرة الكتاب بعد استمرار تدريسه لمدة سبع وعشرين سنة فيما قيل!!

وما فعلته الجامعة الأمريكية جريمة لا يقل خطرها عن جرائم التجسس لحساب دولة أجنبية على حساب الوطن، أو جريمة الخيانة العظمى التى تصل عقوبتها إلى الإعدام.

ذلك لأن الكتاب يتهم خاتم النبيين بالكذب والخداع ونسبة القرآن إلى الله، وهو من تأليفه هو؟! أى من تأليف محمد ﷺ.

ولسنا ندرى إذا فرطنا إلى هذا الحد فى ديننا الرسمى كما نص على ذلك دستور البلاد، لسنا ندرى ما الذى يبقى لنا من الإسلام بعد هذا التفريط؟

كان المتوقع بعد ظهور تورط الجامعة الأمريكية فى هذا الاعتداء الأثيم على شعب مصر ونظامها ودينها كان المنتظر أن تغلق أبواب هذه الجامعة، وألا يسمح لها بمزاولة نشاطها إلا بعد تغيير شامل فى نظامها ومناهجها وإحكام الرقابة عليها واعتذار أمريكا رسميًا عن تجاوزات جامعتها، ولكن شيئاً ما من ذلك لم يحدث.

وإسهاماً منا فى دفع ذلك الخطر الذى حشت به الجامعة الأمريكية عقول شبابنا سارعنا لوضع هذا «الكتيب» ليكون سلاحاً عاصماً لشبابنا خريجى هذه الجامعة وغيرهم من التأثر بهذه الأباطيل التى يروجها الكتاب، خاصة بعد نشر محتوياته فى

الصحف وغيرها من وسائل الإعلام.

وقد وضعنا فى الاعتبار الأول تبرئة ساحة النبى الخاتم من تلك الافتـراءات التى يروجونها ضده، بهـدف إسقاط الإسلام نفـسه، وتصويره فى صورة أكـذوبة ابتدعها محـمد ﷺ ثم تلقاها الناس عنه بكل رضـا واقتنـاع، هذا هدفهم الذى مـن أجـله ارتكبـوا تلك الحماقات وروجوهـا - وما يزالـون - بكل الوسائل ومنها الـ «Internet» الذى استـخدموه فى السـخرية من القرآن، وغـير القـرآن من كل ما هو إسـلامى أصيل، والموضـوع الذى نواجهـه هنا، هو عرض سريع واضح لأسبـاب تزوُّج الرسول ﷺ بأمهات المؤمنين الإحـدى عـشـرة، والتى تخـلو تماماً من مـزاعم هؤلاء الحاقـدين، الذين حصـروا زيجاته كلـها فى سبـب واحد، هو - حسب زعمهم - التهالك وراء الشهوات الجنسية؟

ومنهجنا فى هذه المواجهة هو الآتى:

فى القسم الأول من هذه المواجهة عرضنا الأسباب الخاصة وراء تزوجه ﷺ زوجة زوجة.

أما القسم الثـانى فقد عرضنا فـيه الأسباب العـامة فى زيجاته جميعاً، والحِكَمْ التى من أجلها أباح الله لرسوله التزوج بأكثر من أربع، وهو المَقدار المباح لكل المسلمين بشروطه المعروفة.

وقد حرصنا كل الحرص فى قصة كل زوجة من أمهات المؤمنين

على تكذيب خصوم الإسلام بالأدلة القاطعة ثم راعينا الإيجاز والوضوح فى كل ما عرضنا له من أفكار، والله تعالى نسأل أن يؤدى هذا «الكتيب» الغرض منه فى تبرئة ساحة رسول الله ﷺ، وعصمة شبابنا من التأثر بأباطيل الحاقدين..

والله من وراء القصد.. وهو الهادى إلى سواء السبيل..

المؤلف عفا الله عنه

الأسكندرية - العجمى هانوفيل

ربيع الأول صيف ١٤١٩ هـ - الموافق يوليو ١٩٩٨م

(١)

أم المؤمنين خديجة - رضى الله عنها

تقـدم فى المدخل لهذه المواجـهـة أن المستـشرقين وأسـاتذتهم المبشرين اتخـذوا من تعدد زوجات النبى ﷺ وسيلة لوصـفه عليه السلام بأنه كان رجلاً شهوانياً لا همَّ له إلا إشباع غريزته الجنسية، والتهالك وراء الاستـمتاع بالنساء، ولما كانت السيـدة خديجة بنت خويـلد - رضى الله عنها - أولى زوجـاته، ولم يتزوج الرسـول عليهـا ثانية ولا ثالثـة وهى فى عصـمته، بل حـدث التعـدد بعد وفاتها، لما كان الأمر كذلك فقد شعروا بأن اتهامهم إياه بالشهوانية غير مستساغ، فراحوا يبحـثون عن ثغرة أخرى يضمونها إلى معرَّة «الشهوانيـة» المدعاة، وهى الطمع فى مالها وثروتهـا؛ لأنها كانت من أثرياء قريش.

والتهمتان باطلتان:

أما تهمة الشهوانية، فيكفى فى بطلانها فارق السن بين النبى - عليه السلام - وبين السيدة خديجة - رضى الله عنها - فقد كانت فى الأربعين من عمرها، وهـو شاب مكتمل الحيوية فى الخـامسة

والعشـرين من عمره، فهـو بمنزلة الابن لها، وهى بمنزلة الأم له، وتفاوت السن بهذه الدرجة الكبيـرة ليس مطلباً للرجال فى النساء والعكس هو الصحيح، ثم إن السيدة خديجة - رضى الله عنها - مع كـبر سنهـا هذا كانت ثيـبـاً ولم تكن بكراً، بل كانت زوجـاً لرجلين من قبله، هما عتيق بن عائذ المخزومى، وأبو هالة هند بن زرارة التميمى، وكلاهما من سادات العرب وأشرافها، فهل يكون الرجل الشهوانى جاهلاً بأسـباب المتع إلى هذا الحد؟ وقد كان فى وسعـه أن يتزوج من يـشاء من فتـيات قـومه النضـرات وهن فى بصاضة الشباب وسحره ومرحه، وخفة روحه.

إن السيدة خديجة - رضى الله عنها - حتى ولو كانت عانساً، وهى فى هذه السن لانقطعت عنهـا مطامح الرجال الذين يسـعون وراء إشبـاع الغريزة الجنسيـة من مصـادرها المحببـة إلى النفوس، وكان أمـام محـمد ﷺ مـئات الفـتيـات الغريرات اللاتى يتـمنى أولياؤهن أن يكون مـحمد ﷺ صـهراً لهم، لما كان له فـيهم من حسن السيرة، وكرامة الأخلاق، وأدب النفس، وشرف الأرومة، وقد أهلته هذه الصفات لأن يحمل بينهم لقباً لم يحمله منهم أحد قبله، إنه «الصـادق الأمين»، والذى أطلق عليه هذا اللـقب النبيل هم قومه، فما أجمل هذا الوصف؟ وما أكرم ذلك الموصوف؟!

ويضاف إلى هاتين الحقيقتين: كبر السن، والثيوبة حقيقة ثالثة، من شأنهـا أن تصرف شاباً فى الخامـسة والعشرين من عـمره عن

الاقتران بـالسيدة خديجـة لو كانت الشهوة هى التى جـمعت بين محمد - عليه السلام - وبين خديجة - رضى الله عنها.

فخديجة بعد موت زوجيها الأولين لم تكن متفرغة لحياة زوجية ثالثة؛ لأنها كانت أمّا لاثنين من ثمرة زواجها السابق، فقد أنجبت من زوجهـا الأول عتيق بن عائذ المخـزومى بنتاً بلغت سن الزواج حين تمت خطبتـها إلى محمـد بن عبد الله، وأنجبت من زوجـها الثانى أبى هالة ولداً كان فى سن الطفولة فى ذلك الوقت.

والرجل الشـهوانى إنما يبـحث عن فـتاة غـريرة تتفـرغ له هى ويتفرغ هو لها، تلك هى مقومات اللهو عند طلاب الملذات وعبيد الشهوات.

فكيف يستقيم مع هذا أن يصف خـصوم الإسلام من المبشرين والمستشرقين والملحدين أن زواج مـحمـد ﷺ من خديجـة كان الدافع إليه هو شهوة الجسد؟ أمـا يستحى هؤلاء من مجرد خطور هذا على «بالهم»، فضلاً عن إعلانه، والتحمس له، والإصرار عليه؟

إلى هذا الحد من الجهل والجهالة يحملهم حقدهم وبغضهم فيرون النور ظلاماً، والبياض سواداً؟!

إن أكذوبة الأكاذيب ترديد هذه التهمة، وهى تهمة يردها العقل والواقع والفطرة القويمة، قبل أن يردها النقل، إن الآفـات النفسية والأهواء المريضـة وكراهيـتـهم للحق هى وراء مـا يقولون، ومـا

أصدق ما قال الشاعر فى أمثالهم:

قد تُنكر العينُ ضوءَ الشمس من رمدٍ

ويُنكر الفمُ طعْمَ الماء من سَقَمِ

لكن نزاهة محمد ﷺ ونبل سلوكه، وطهارة سيرته لن يضيرها هذا القول مهما احتشدوا له وحشدوا، والأمر كما قال الشاعر الحكيم:

هل يضر البحر أمسى زاخراً

أن رمى فيه غلام بحجر؟

الطمع فى المال:

أما تهمة الطمع فى مال خديجة - رضى الله عنها - فهى أوهى من بيت العنكبوت، لأن محمداً ﷺ عُرِفَ فى جميع مراحل حياته بالزهد فى الدنيا، منذ صباه، حتى لقى ربه، ومع هذا الزهد كان كساباً للمال للإنفاق على نفسه، حتى لا يكون عالة على من سواه.

وقد بدأ بالعمل، وهو صغير، بعد وفاة جده عبد المطلب، الذى أوصى عند موته ابنه أبا طالب أن يرعى ابن أخيه عبد الله - محمداً عليه السلام - وكان أبو طالب مُقلاً من المال، مع كثرة العيال، ولما شب محمد عن الطوق، اشتغل برعى الغنم ليساعد عمه على نفقة عياله، فكان يجلب من المال ما يدخل السرور على

عمه وأهل بيتـه، وكان إذا وضع الطعام لا يسرع إلى الجلوس مع أفراد أسرة عمه، كما كان أسرعهم رفعاً ليده عن الطعام، ولما رأى عمه أن بنيه يلتهمون الطعام ومحمداً يبطئ فى تناوله أراد أن يعزل له طعامه حتى لا يغلبوه، فـرفض محمد هذه الفكرة، وهو صبى دون البلوغ، ولكن أخلاق النبوة ولدت معه يوم ولد، ونمت كلما نمى، وقويت فيه واشتد ظهورها كلما قوى هو واشتد ظهوره.

وبعد زواجـه بالسيدة خديجـة وهى أثرى أثرياء أهل مكة حتى قال كُتَّابُ السيرة: إن بضاعتها التى كانت تُحمل فى رحلتى الشتاء والصيف كـانت تعادل بضاعـة كل أهل مكة، وما كـان يُرد منها شئ، بل كانت تبـاع كلها، وتحقق لهـا أرباحاً عظيمة، وبخـاصة بعد زواج محمد المبارك منها، والعمل لها فى تجارتها، وعلى رغم هذا الثراء الواسع لزوجته فإن محمداً لم تُلْهِهِ ملذات الدنيا فيغدو فيـها ويروح، بل كان يقـضى الليالى ذوات العدد فى غـار حراء يتأمل فى ملكوت السـموات والأرض، خالياً إلى ربه، ومـا كان يحـمل معه مـن الطعام إلا الخـبز الجاف الصـالح للبـقاء دون أن يتعفن فإذا نفد طعامه عاد فـقضى وقتاً فى بيته مع زوجته وأولاده ثم رجع إلى غاره ليواصل التأمل وتزكية القلب والنفس، فلو كان زواجه من خديجـة طمعاً فى شهوة أو مـال لما فارق البيت لحظة، إلا أن يخرج للتنزه والاستـرواح إلى الطائف ذات الهواء العليل، أو الشام ذات المباهج والماء الجارى والحدائق الفيحاء؟!

لكنه لم يفعل من ذلك شيئاً، لأنه لم يخلق لملذات الدنيا، ولا ملذات الدنيا خُلقت له.

إن القدر الإلهى يُعِدُّه ليكون قائد الإنسانية جميعاً حتى تلقى ربها، بعد أن يُبين لها محمد ﷺ ما أنزله الله إليها، ثم تنقطع - برسالته - رسالات السماء إلى يوم الدين.

من الذى طلب الآخر؟!

ومما يدحض فرية خصوم الإسلام الإجابة على هذا السؤال: من الذى طلب الآخر؟!

أمحمد هو الذى خطب خديجة كما يخطب الذكور الإناث فى كل زمان ومكان؟ أم أن الذى خطب محمداً هو خديجة على خلاف المألوف فى دنيا الناس؟!

إن الرواية الأمينة والخبر الصادق الذى لم يُعْرف له مخالف أن السيدة خديجة - رضى الله عنها - هى التى خطبت محمداً ﷺ، لا أن محمداً هو الذى خطبها.

فقد عرفت خديجة محمداً صادقاً أميناً كما أطلق عليه قومه ثم لمست هذا الصدق وتلك الأمانة رؤية عين، ورؤيا قلب حين أوكلت إليه مهمة الاتجار فى مالها فرأت من الصدق عجباً، ومن الأمانة كنزاً، وتحرك قلبها نحو هذا المثل العالى فى روعة الأخلاق، ونبل السلوك، وفى لحظة ما دخلت عليها صديقتها

نفيسة ابنة منية، فرأتها فى ضيق وحـيرة، سرعان ما عرفت نفيسة أسبابهـما، فهرولت من ساعتـها إلى محمد، وحدثتـه فى شئون الزواج، وأفصحت له عما لمسته من السيدة الطاهرة خديجة، ولم يمانع محمد فى الزواج منها إن كان ذلك رغبة لها.

ثم اجتـمع قومهـا وقومه، وأعلنت الخـطبة، وتم الزواج على بركة من الله ورضوان.

ولم يكن ميل خـديجة إليه تلبيـة لغرائز جنسية، بل كـان حباً لتلك النفس الزكية، والقلب الطاهر، والسـيرة الحميدة دليل ذلك أن السيدة خديجـة بعد موت زوجها الثانى تقدم لهـا رجال أكفاء من سادات قريش يخطبونها الواحـد تلو الآخر، فما قبلت واحداً منهم، لا انتظاراً منها للتزوج من محـمد - عليه السلام - ولكن لأنها زهدت فى الحياة الزوجـية بعد فجيعتها فـيها مرتين، وآثرت التفرغ لرعاية ابنتها وولدها من عتيق وأبى هالة.

وفى هذا تبرئة بعد تبـرئة لمحمد من مغامز المبـشرين من أمثال مسكيم رودنسـون، وتبرئة للسيـدة خديجة من التهـالك وراء متع الجـسد، التى تمارس فـى الغرب الآن بكل وسـيلة من الوسـائل الخسيسة، ثم يتعقب بعض أبنائها سيرة الأطهار ليدنسوها.

بل هى حكمة الحكيم:

هؤلاء المبشرون والمستشرقـون لو كانوا طلاب حق لردعهم عما

قـالوا ثمرة الزواج النبـوى من خـديجة - رضى الله عنهـا - ثم موقف الرسول منها بعد وفاتها - رضى الله عنها.

لقـد كـان هذا الزواج هو من حكمـة الله الحكيم، الذى أعـدَّ محمداً للقيام بمهام أعظم رسالة إلهية يبلغها رسول للناس جميعاً، كما أعد خديجة لتكون أول مؤمنة بتلك الرسالة، وأول ناصرٍ لها من البشر، وأن يكون بيتهـا مهبطاً للوحى من السماء إلى الأرض حاملاً مشاعل النور الأبدى فى ربوع الكون حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وأن تكون أمًّا لولدين وأربع بنات من سلالة النبوة الطاهرة.

أول من علم بالسر:

كانت خديجة أول من علم بالسر الإلهى بعـد محمد ﷺ بعد أن نزل عليه جبريل بقوله تعالى لأول مرة ينزل فيها جبريل بوحى جديد بعد رسالة عيسى عبد الله ورسوله:

﴿اقـرأْ باسم ربِّكَ الَّذى خَلَق * خَلَق الإنسَـانَ منْ عَلَق * اقـرأْ وربُّكَ الأكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالقَـلَمِ * عَلَّم الإنسَانَ مـَالَمْ يَعْلَمْ﴾.

كان لـنزول الوحى على النبى لأول مرة رهبـة وشدة، ثـم ما وجد عليه السلام من يُثبِّتـهُ ويهدئ روعه فى تلك اللحظة القاسية إلا خديجـة - رضى الله تعالى عـنها - وكان مما قـالت له: «الله

يرعـانا يا أبـا القـاسم، أبشـر يا ابن عم وأثبـتْ، فـوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة، والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث وتحمل الكل - أى تجبر الضعيف - وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق».

إنها - وذى الجلال والإكـرام - لأغلى وأعظم نصيحة تـسديها زوجة مؤمنة لزوجـها فى ساعة الشدة والـعسر، ولو لم يكن من ثمـــرات هذا الزواج إلا هذا الموقـف العظيم، لكـان أعظم زواج يشهده تاريخ الإنسانية كلها.

ثم وضعت ثروتها فى خـدمة الدعوة وكفاها شـرفاً وعلو رتبة عند الله أنها كـانت أول من آمن بالإسلام لا من النساء فـحسب، بل منهن ومن الرجـال، فـهى أسبق السـابقين إلى الإسـلام على الإطلاق.

وقـد أنجب الله لرسـوله كل أولاده - مـا عـدا إبراهيم - من خديجـة وهم: «ولدان: القاسم وعبـد الله، وأربع بنات: زينب، ورقية وأم كلثوم، وفاطمة - رضى الله عنه وعنهن».

إن مسكيم «رودنسون» وأسلافه لو كانوا طلاب حق - بحق - لأكبروا هذا الزواج، ولعدوه من روائع الـوقائع الإنسانية بدلاً من هذا التـهـافت السخـيف، ولكن الحـقـد أعمى قلوبـهم واغتـال عقولهم، ومـا هم بضارين به من أحد إلا أنفسهم فـهم فى غيهم وطغيانهم يعمهون.

موقفه بعد وفاتها:

لكل عظيم دور فى هذه الحياة، فإذا أدَّى دوره عاد إلى ربه ولو تصور الناس أن الدنيا أحوج ما تكون إليه، وقد أدَّت السيدة خديجة - رضى الله عنها - دورها فى الحياة فى خدمة الدعوة طوال عشر سنوات من بدء الوحى وكانت نعم الوزير والنصير لصاحب الرسالة ﷺ، شهدت معه مولد الإسلام، واحتضنته معه وليداً، وغذته بحكمتها وصبرها حتى شب عن الطوق وترعرع، وقبل الهجرة بثلاث سنوات اكتمل دورها فى نصرة الدعوة، فدعاها الرفيق الأعلى ليجزيها أحسن ما عملت، دعاها إليه ومازال أمام الدعوة عقبات كئود، ولكن وجود الله يغنى عن كل وجود بعد تأدية أصحاب الأدوار أدوارهم.

وفى السنة نفسها مات عم النبى أبو طالب، وقد كان سنداً قوياً لابن أخيه ضد قومه، وإن ظل على عقيدتهم حتى مات، وشعر النبى ﷺ بفراغ أرضى هائل بعد موتهما واشتد حزنه حتى سُمِّى ذلك العام عام الحزن، وقد ظل النبى - عليه السلام - مخلصاً وفياً لحظه الأول من أمهات المؤمنين، لا يسلو عنها لحظة، ولا يفكر فى الزواج بعدها من النساء، ورضى بقضاء الله وقدره مع مواصلة الجهاد فى سبيل الله والقيام بأعباء الرسالة وما أشقها، لكن عظماء الآخرة لا تخور قواهم، ولا تفتر عزائمهم مهما لقوا من صعاب، ولو طارت أرواحهم شعاعاً فى سبيل الحق.

فهل كان محمد ﷺ لو كان شـهوانياً ما تزوج خديجة إلا من أجل جمـالها ومـالها؟! هل كـان يحزن ذلك الحـزن وقد ذهبت صاحبـة المال والجمال؟! أم كان سـيسرع فى التزوج من غـيرها، ولأنساه اللهو ما كان بينه وبين خـديجة؟! هلا سأل هؤلاء الحقدة أنفسهم هـذا السؤال؟! إن عشاق المتعـة لا يبالون بمن ذهب، وإنما يسرعون فى البحث عن بدائل أخرى يجدون فيها من المتعة واللهو ما فاتهم بفراق من فارقهم، وليس لديهم ذرة من الوفاء نحو نديم الأمس.

استمرار الوفاء:

وقد يندر لدى بعض عـبيد الشهوة أن يشـعروا بفراغ طارئ إذا فقدوا «خـديناتهم» فتخيم عليهـم موجة من الأسى، ولكن لا من أجل الوفاء، بل بكاء على حظوظهم الدنيـئة، التى ولَّتْ، أما أن يذرفوا دمعـة وفاء فهذا مـحال، وأما أن يستمـر أساهم على من فارقهم فهـذا محال آخر، فإن غانية واحـدة تمحو من ذاكرتهم ما كان بالأمس القريب.

أما محمـد العفيف النزيه، فقد ظل وفياً لخـديجة طوال حياته بعدها، وفى عصـمته عدد من الزوجات فى بعـضهن ما ليس فى خـديجة من الشـباب والجـمال وسـحر الأنوثة، ولنسـمع إلى أم المؤمنين السيدة عائشـة ابنة الصديق أبى بكر - رضى الله عنهما - وهى تقول:

«ما غرت على خديجة، وما رأيتها قط، ولكن كان النبى يكثر ذكرها وربما يذبح الشاة ثم يبعثها فى صديقات خديجة، وربما قلت له: كأن لم يكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة؟ فيقول: إنها كانت وكانت، وكان لى منها ولد».

وأكثر من ذكر خديجة يوماً فقالت السيدة عائشة: هل كانت إلا عجوزاً فى غابر الأزمان؟! وقد أبدلك الله خيراً منها؟ - يعنى أبدله الله عائشة وهى خيرٌ من خديجة - فغضب ﷺ من هذه الكلمة وقال لها:

«لا والله ما أبدلنى الله خيراً منها، لقد آمنت بى حين كفر الناس، وصدقتنى حين كذّبنى الناس، وواستنى بما لها إذ حرمنى الناس، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء»، قالت عائشة: «فلم أعد أذكر خديجة بسوء بعد هذا أبداً».

فهل هذه أخلاق عشاق وعبيد شهوة؟ أم أخلاق أوفياء مخلصين يعشقون المعانى النبيلة، والمثل العليا؟ ولا يقيمون وزناً لمتع الجسد وملذات الدنيا الزائلة، إن الحقد والحسد، والعلل النفسية القاتلة هى التى تحمل هؤلاء المبشرين والمستشرقين واليهود والملحدين على أن يروجوا هذه الشائعات ليشوهوا حقائق الإسلام والله متم نوره ولو كره الكافرون.

* * *

(٢)

السيدة سودة بنت زمعة - رضى الله عنها

اشتد حـزن - رسول الله ﷺ بعد موت خـديجة ومن يدرى، ربما لم تكن ذكراها تفارقـه لحظة واحدة فقد عاش معـها وعاشت معه خمسـاً وعشرين سنة، ثلاثة أخماسها قبل البعـثة، وخمساها بعد البعـثة، وقد ملأت عليه حـياته طوال تلك المدة، وبلغ أثرها فى حياته شأوا عظيماً فى ظلال البعثة، حيث كان فى أشد الحاجة إلى مؤازرتها، لذلك منعه الوفاء لها من التفكر فى الزواج، ورثى جميع أصحابه لحـاله وودوا لو تزوج بعدها، لكن لم يجرؤ منهم أحد على أن يشير إليه بأمر الزواج لما كانوا يعرفون من شدة حزنه على السيدة خديجة.

بيد أن بعض النســاء المؤمنات، وهى السيـدة خولة بنت حكيم السلمية - والنساء لهن حسن حـيلة على ما يردن - فاتحته فى أمر الزواج، لأنها كانت تقدر ظروف وحـدته، وحاجته إلى من يقف بجواره فى البيت من فضليات النساء، وحين عرف النبى ما أرادته السيدة خولة قال لها: ومن بعد خديجة؟

فذكـرت له - فى من ذكرت - سودة بنت زمعـة، وكان النبى

يعرف من هى سودة؟ وما هى قضيتها، فأذن لها فى خطبتها - بلا تردد - فذهبت إلى بيت سودة، فقالت لها ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة يا سودة؟ قالت سودة: وماذا يا خولة؟ قالت خولة: أرسلنى رسول الله أخطبك له.

قالت سودة وهى لا تكاد تصدق ما سمعت: ادخلى على أبى فاذكرى له ذلك.

فدخلت عليه خولة، وكان شيخاً فانياً قد طعنت به السن، فقالت له: إن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب قد أرسلنى أخطب له سودة.

قال فى دهشة: كفء كريم فماذا تقول صاحبتك - يعنى ابنته سودة؟؟

قالت خولة: إنها تحب ذلك.

فاستدعى زمعة ابنته سودة وقال لها: زعمت هذه أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أرسلها يخطبك لنفسه وهو كفء كريم، أفتحبين أن أزوجك إياه.

قالت سودة: نعم.

فقال لخولة: ادع لى محمداً للزواج، وجاء محمد ﷺ وتم الزواج المبارك.

كان عمر السيدة سودة بنت زمعة قد بلغ الخامسة والخمسين،

وليس لامرأة فى سنها حاجة إلى الرجال، ولا للرجال حاجة إليها.

فلماذا - إذاً - سارع النبى ﷺ للزواج منها لحظة ذكرت خولة اسمها له؟

من المحال أن يكون زواجه منها - وبهذه السرعة - رغبة فى إشباع الشهوة فهى قد جاوزت سن اليأس، وهو عليه السلام كان قد ناهز الخمسين من عمره، وأعباء الدعوة يكاد ينوء بها كاهله، وتحتاج منه إلى كل ذرة من وقته، إنما الذى دعاه إلى هذا هو المساواة والحماية والرحمة، فسودة هذه من بنى عامر، وأسرتها كلها سارعت إلى الإسلام وهاجر منهم إلى الحبشة فى الهجرة الثانية ثمانية رجال فارين بدينهم من بطش قريش وفتنتها، ومع ثلاثة منهم هاجرت زوجاتهم، وكانت السيدة سودة قد هاجرت هى وزوجها السكران بن عمرو، وعقب عودتهم من الهجرة مات زوجها قبل الوصول إلى مكة، فصارت لا عائل لها وأبوها شيخ كبير، فخشى النبى ﷺ أن يضطهدها خصوم الدعوة، أو تتعرض لما يسوؤها فى دينها فرق لها قلبه، وأدخلها فى كفالته، فكانت ثانية أمهات المؤمنين بعد خديجة - رضى الله عنهما.

إن زواجه عليه السلام منها كان زواج مواساة وعزاء وحماية ورحمة، ولا يزعم أحد لا من العقلاء ولا من المجانين أن الرغبة الجسدية، والشهوة الجنسية هى التى حملت النبى على الزواج منها.

لا يدعى هذه الدعوة إلا من ملأ الحقد قلوبهم، واغتال الحسد عقولهم، وأعمى الجهل أبصارهم وبصائرهم، ولو كان هؤلاء المبشرون والمستشرقون وأمثالهم يحترمون أنفسهم، ويصونون سمعتهم لما نطقوا بهذا الهذيان ولو نطق به الحجر، ولكن الله زيَّن لهم هذا الباطل ليفضحهم، ويعريهم أمام التاريخ، فآثروا هم فضيحة أنفسهم لفرط كراهيتهم للحق، وبغضهم لرجل أمنه الله على وحيه ليبلغه لعباده.

والسبب أنهم يكرهون الإسلام، ويودون أن يردوا المسلمين كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم أنه الحق، وصدق الله العظيم القائل فى محكم كتابه: ﴿ودَّ كثيرٌ من أهْلِ الكتَابِ لَوْ يَردُّونكُم من بَعْدِ إيمانكُمْ كُفَّاراً حَسَداً من عند أَنْفُسهِم من بَعْد مَا تَبيَّنَ لهُمُ الحَقُّ..﴾ [البقرة: ١٠٩]، هذا دأبهم.. والله لهم بالمرصاد.

إن زواج محمد ﷺ من السيدة سودة بنت زمعة لم يخرجه من وصف «العزوبة» إلى وصف «الزوجية» بمعناها الذى يعرفه الناس، ولهذا اشتدت دهشة أهل مكة جميعاً لما علموا بنبأ زواجه منها، وربما أدرك دهاتهم مقصد النبى من هذا الزواج «الإنسانى» النبيل الذى خلا من أسرار الزواج الحسية.

فقد تزوجها ﷺ ليحميها ويكون لها كنفاً وعائلاً، ويرفعها من مجرد مؤمنة سابقة إلى الإيمان، مهاجرة فى سبيل الله ومرضاته

إلى «أم» من «أمهات المؤمنين» فضليات نساء الأمـة، أما مسارعتها هى لقبول خطبـة رسول الله ﷺ فلأنها تعرف مـا عرف المسلمون الأولون رجالاً ونســاء قسوة الظروف البيتـية التى كان يعانـيها هو بعـد وفاة السـيدة خـديجة، فـوجـدت فى خطبتـه إياها فرصـة لإسهامهـا فى تخفيف العبء عنه، وتجنيد طاقاتها لخدمـته، فإنها وإن عجزت عن العطاء فى ميدان من ميادين الحياة الزوجية، فإنها تجيـد فنون الرماية بمهـارة فى بقيـة ميادينهـا، والإيمان بالله الذى أسرعت إليـه وهاجرت من أجله، هو الرصيد الضـخم الذى قام عليه صرح تلك الأواصر الزوجية، فدخلت سودة بيت النبى ولم ولن تخرج منه أبداً، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده والله ذو الفضل العظيم.

وهذا ما ترجم عنه قولها لرسول الله ﷺ، فقد قالت له يوماً: «والله ما بى على الأزواج حرص، ولكنى أحب أن يبعثنى الله يوم القيامة زوجاً لك».

وقد كان لها ما أرادت رضى الله تعالى عنها.

* * *

(٣)

السيدة عائشة - رضى الله عنها

أبو بكر - رضى الله عنه - أبو أم المؤمنين عـائشة - رضى الله عنها - هو من أسبق السابقين إلى الإسلام، بل كان أول من أسلم من الرجال وكان بين إعلان إسـلامه، وبين دعوة الرسول إياه إلى الإسلام تلازم لم يفصل بينهما زمن، وكـأنه كا يترقب - بلهفة - الدعوة إلى الإسلام.

وإذا كـانت السـيدة خـديجـة أول السـابقين إلى الإسـلام من النساء، فـإن أبا بكر كان أول السابقين من الرجال، وفـضائله فى الإسـلام لا تحـصى، ومـلازمـتـه لصاحـب الدعـوة لم تنقطع، وتصديقـه إياه فى كل ما يقـول لم يتوقف، وإنفـاقه على فـقراء المسلمين مستمر، ودفاعه عن ضعفائهم لم يفتُر، وكان رسول الله ﷺ يكثر من زيارته يبثـه همومه، ويكشف له عمـا فى نفسه من آلام وآمال، فيشاركه فى الآمال، ويتحمل معه الآلام يزوره مرتين فى اليوم، أولاهما فى أول النهار، والأخرى فى آخر النهار، وقل أن يزوره فى غـير هاتين السـاعتـين فيـفسح له أبو بكر صـدره،

وتسمع له أذناه، مودة صافية أسبابها معقودة فى السماء، وظلالها ممتدة على الأرض، كان دوره فى الدفاع عن صاحب الرسالة والإسلام يحبو فى مكة، مع قلة النصير، كدور مؤمن آل فرعون فى الدفاع عن موسى - عليه السلام - كلاهما صرخ فى وجه الطغاة قائلاً: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]. هكذا شبَّه كُتَّابُ السيرة مؤمن قريش - أبا بكر - بمؤمن آل فرعون، ورجل هذا شأنه يحبه الله ويحبه رسوله، وبهذين الحبين حظى أبو بكر - رضى الله عنه - وكانت خولة بنت حكيم السلمية حين أشارت على النبى بأن يتزوج، ذكرت له ابنة صديقه أبى بكر «عائشة - رضى الله عنها»، كما ذكرت له سودة بنت زمعة، وما كان لمحمد الرءوف الرحيم بالمؤمنين - كما وصفه ربه - أن يمانع فى الزواج من سودة المؤمنة الصابرة المثابرة التى أوذيت فى سبيل الله، وما كان له أن يمانع فى التقدم لخطبة ابنة صديقه الوفى الكريم أبى بكر، فآذن لخولة أن تخطب له الاثنتين مع الفارق الكبير بينهما:

الأولى فى الخامسة والخمسين من عمرها، والثانية فى السادسة أو السابعة من عمرها.

لقد كان بوسعه ﷺ أن يشير على خولة بأن ترجئ خطبة عائشة لصغر سنها، ولكنه - فيما يبدو - عَظُم على نفسه أن

يطفئ شعاعاً رقيقاً امتـد بينه وبين صديقه الحميم، فخرجت خولة من عنده وهى تحـمل بُشريَين، إحـداهما لسـودة، وقد كـان من حديثـها ما كـان، والثانية لآل أبى بكـر، وقد نفذتهـا خولة على الوجه الآتى:

دخلت خولـة بيت أبى بكر ونادت زوجه أم رومـان قائلة: أم رومان ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة؟

قالت أم رومان: وما ذاك؟

قالت خولة: أرسلنى رسول الله أخطب له عائشة.

قالت أم رومان: وددت.. انتظرى أبا بكر فإنه قادم.

وجاء أبو بكر، فقالت خولة: يا أبا بكر، ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة؟ فقد أرسلنى رسول الله أخطب له عائشة.

فأثنـى أبو بكر على رسول الله ثم قـال: وهل تصلح له؟! إنما هى ابنة أخيه؟

قالت خولة: فـرجعت إلى رسول الله فأخبـرته بما قال أبو بكر فقال عليه السلام:

ارجعى إلى أبـى بكر فقولى له: أنت أخـى فى الإسلام، وأنا أخوك - أى فى الإسلام لا فى النسب - وابنتك تصلح لى.

فرجعت خولة وأخبرت أبا بكر بما قاله رسول الله ﷺ.

فقال أبو بكر: انتظريني حتى أرجع.

وقالت أم رومان لخولة توضح لها الموقف: ولماذا أمرها أبو بكر بالانتظار وإلى أين ذهب؟!

فقد كان المطعم بن عدى قد طلب من أبى بكر ابنته عائشة لابنه جبير بن المطعم بن عدى، وأبو بكر ما أعلن رضاه ولا رفضه فأراد أن يتثبت، فخرج إلى بيت المطعم، وكانت امرأته أم جبير مشركة على دين قومها، فلما رأت أبا بكر داخلاً بادرت بالكلام قبل أن يتكلم أبو بكر فقالت:

«يا ابن أبى قحافة - تنادى أبا بكر - لعلنا إذا زوجنا ابننا ابنتك أن تدعوه للدخول فى دينك، وتخرجه من دين آبائه وقومه.

تريد أن تحذر أبا بكر، وتشترط عليه ألا يدعو ابنهما إلى الدخول فى الإسلام إذا تزوج عائشة.

فلم يرد عليها أبو بكر ولكن قال لزوجها المطعم: ما تقول هذه؟!

قال المطعم: إنها تقول ذلك الذى سمعت، وبهذا أظهر المطعم موافقته على ما قالت امرأته.

فسعد أبو بكر بما لقيه من المطعم وامرأته، وعاد إلى بيته مسرعاً، وقال لخولة: ادع لى رسول الله ﷺ.

إن الله عز وجل - أحكم الحاكمين - كفى أبا بكر مؤنة التحلل من ارتباط ابنته «عروس الفردوس» بابن المطعم بن عدى وأنطقه هو وامرأته بما أسعد خليل الرحمن أبا بكر - رضى الله عنه - وأخلص عائشة لتكون حبة مضيئة فى عقد أمهات المؤمنين - رضى الله عنهن كلهن.

واحتلت عائشة مكانها ومكانتها فى بيت النبوة الطاهر، وكانت أم المؤمنين الثالثة فى مراسم الزواج العملى.

خطبها الرسول وعقد عليها وهى ابنة ست أو سبع سنين ثم تركها فى بيت أبويها تمرح وتلعب ريثما يحين وقت الدخول بها.

وقضى رسول الله ﷺ بقية وقته بمكة قبل الهجرة مع سودة بنت زمعة، قضاه أعزب وإن كان زوجاً ولم يدخل بعائشة إلا بعد الهجرة.

فأين دواعى الشهوة فى هذه «الزيجة» المؤجلة؟ لو كانت الشهوة هى الباعث، فإن فى مكة غير سودة وعائشة من ربات الخدور الناضجات ما يملأ قلب النبى وبصره، ولكنه لم يفعل لأنه كان نوراً وهدى يسير على الأرض، زاهداً فى الدنيا وملذاتها، معرضاً عن زخارفها ومغرياتها، مقبلاً على ربه، طالباً رضاه، مشغولاً بأعباء الرسالة التى أشقى نفسه، وأسهر

جفنه وأدمى قدميه فى سبيل القيام بها، وكان بوده لو هدى الناس أجمعين.

فالشهوة - وإن كانت من أخلص الحلال وأطيبه فى زيجات النبى - ليست هى السبب فى واحدة منها - بل كانت مع كل زيجة أسباب سامية هى الداعية إليها فى المقام الأول، عرفنا ذلك فى زواجه عليه السلام - بالسيدتين الفضليين خديجة وسودة - رضى الله عنهما - أما أسباب زواجه بالسيدة عائشة فهو الوفاء والإخلاص والتكريم لأبيها المؤمن الكريم، ذى المناقب العالية فى الإسلام، قبل أن يصاهره النبى ﷺ، وبعد أن صاهره.

فقد أخرج الإمام مسلم فى صحيحه أن النبى ﷺ قال:

«إنَّ مِنْ أمنِّ الناس علىَّ فى ماله وصحبته أبا بكر ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام».

كما جاء فى مناقب أبى بكر قوله ﷺ: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه كبوة.. إلا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة.. ما لبث حين ذكرته له - أى ذكر له الإسلام - وما تردد فيه».

كما ورد:

«ما نفعنى مال قط ما نفعنا مال أبى بكر».

فالبر، وحسن الصلة، والمكافأة، والتكريم؛ هى الأسباب فى اقتران محمد ﷺ بالسيدة عائشة - رضى الله تعالى عنها وعن أبيها الكريم.

أما المبشرون والمستشرقون، فالحق - دائماً - فى وادٍ وهم فى وادٍ آخر، وكأنى بالشاعر يعنيهم - فى من عنى - حين قال فى شدة المفارقة بين الأضداد:

سارت مشرِّقةً وسرت مغرِّباً
شتَّان بين مُشَرِّقٍ ومُغَرِّب

ثم: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

* * *

(٤)

السيدة حفصة ابنة عمر - رضى الله عنهما

حفصة ابنة عمر بن الخطاب، كان لأبيها عند الله وعند رسوله منزلة المجاهدين الأبرار، وكان لعمر - رضى الله عنه - فى الإسلام أعمال ضخمة، فخمة، رفعته مكاناً علياً عند الله، وعند رسوله وعند المسلمين، وفى صحائف التاريخ الإنسانى الناصعة البياض، لم يكن من السابقين الأولين إلى الإسلام بحساب الزمن، ولكنه كان من السابقين الأولين بحساب العطاء والإنجاز العظيم الذى قدمه للإسلام وهو مأمور، وقدمه للإسلام وهو أمير آمر.

وبعض الكاتبين المعاصرين - عباس محمود العقاد - يَعدُّه الرجل الثانى فى الإسلام بعد صاحب الرسالة، باعتبار ما بذله من جهد فى بناء الدولة الإسلامية، بعد الفترة القصيرة التى قضاها الصديق أبو بكر فى قيادة تلك الدولة فى أخطر مراحلها، وأدقها، بعد ذلك الفراغ المهول الذى نتج عن انتقال النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

أطال الله قيادة عمر للدولة الإسلامية الناشئة، حتى بلغت ستة

أضعاف مدة قيادة أبى بكر، وكأن الله أراد بهذا الطول فى خلافة عمر أن يعوضه ما فاته من السبق إلى الإسلام فى بداية الدعوة، فأحسن عمر القيادة وشَاد أركان الدولة - شكلاً ومضموناً - على أروع مثال، ووطّد دعائمها داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها، ووضع نظامها الفقهى والدستورى والإدارى والسياسى بعزيمة لا تعرف الفتور، وقوة لا تعرف الضعف، وشدة فى الحق لا تعرف اللين، ووعى لا يعرف الغفلة، فلا عجب أن يدعوه أستاذنا العقاد - رحمه الله - «الرجل الثانى» فى الإسلام بعد مؤسس الدولة الأول محمد ﷺ.

وليس فى ذلك انتقاص لدور الصديق، ولا مبالغة فى دور الفاروق، ولكنه الواقع حين يقاس بمقاييس النظر الظاهر، وحينما تقارن المقادير بالمقادير، أما مكانة الرجلين عند الله فقد أجمع علماء الأمة - غير الشيعة - على أن أبا بكر أفضل الأصحاب عند الله، يليه عمرّ - رضى الله عنهما - وكان رسول الله يعرف لعمر قدره حتى قبل أن يُسْلم عمر، ويدعو الله أن يعز الإسلام بإسلام عمر، ثم استجاب الله فأسلم عمر، وعلا شأنه بالإسلام، كما أعلى هو شأن الإسلام.

وأحبه النبى أيما حب، ونزَّله من نفسه أكرم منزل، وعرف له أياديه فى الإسلام، وكفاحه فيه، وسعيه على نصرة حق الله، وتخذيل باطل الشيطان.

كانت حفصة ابنة عمر موضع حب وإيثار لديه، وكان زوجها خنيس بن حذافة بن قيس السهمى القرشى من السابقين إلى الإسلام، هاجر إلى الحبشة مع من هاجر من السابقين فراراً بدينهم، ولما عاد إلى المدينة لم يشهد أحد من السهميين غزوة بدر غير خنيس هذا، ثم كان ممن شهد غزوة أحد، وكان قد أصيب بجرح كان سبباً فى موته شهيداً - رضى الله عنه - وبموته ترملت حفصة الشابة (سبع عشرة سنة) وحزن عمر على ترمل حفصة حبيبة قلبه، واشتدت شفقته عليها وعلى شبابها أن تغتاله الوحدة والغموم، وطول الليالى والوحشة.

ففكر عمر أن يبحث لها عن منقذ، فكلم فى شأنها أبا بكر وعرض عليه أن يتزوجها على أم رومان، فسكت أبو بكر، لم يرفض ولم يقبل، فحز ذلك فى نفس عمر، واشتد به الضيق، فذهب إلى عثمان، وكان يومئذ أعزب، فعرض عليه الزواج من حفصة، فسكت عثمان كما سكت أبو بكر من قبل، فتضاعف غضب عمر عما كان يجده مرات، وعظم عليه أن يخيب رجاءه صاحباه أبو بكر وعثمان - رضى الله عنهما - وضاقت عليه الأرض بما رحبت، فعزم أن يشكو أبا بكر وعثمان إلى النبى الكريم، فذهب إليه، وقص عليه ما كان من أمر صاحبيه، وكيف أنه عرض على كل منهما أن يتزوج حفصة ابنته فلم يجد عند أحدٍ منهما رغبة.

استمع إليه النبى ﷺ، ثم قال له:

«يتزوج حفصةَ من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هى خير من حفصةَ؟».

وزال الكابوس الذى كاد يفترس أنفاس عمر، وعلم أن الذى هو خير من عثمان هو النبى ﷺ، فهو إذاً زوج حفصة، ياللسعادة الغامرة التى تسبح فيها حفصة، ويسبح فيها أبوها، قبل أن تسبح هى فيها.

أما من هى خير من حفصة سيتزوجها عثمان، فهى بنت رسول الله ﷺ.

ولم يسكت أبو بكر وعثمان استخفافاً بعمر وابنته، لكنهما سمعا النبى ﷺ يذكرها بعد استشهاد زوجها فخشيا أن يكون أراد ضمها إلى أمهات المؤمنين، ولم يُعلما عمر بما سمعا كراهة أن يفشيا سر رسول الله ﷺ، ثم تكشفت هذه الأمور لعمر فيما بعد.

لماذا تزوج النبى حفصة - رضى الله عنها؟!

إن الأسباب التى دعت رسول الله ﷺ إلى الزواج من السيدة حفصة ابنة صاحبه عمر بن الخطاب، بعيدة كل البعد عما أثاره المبشرون والمستشرقون واليهود، والملحدون، والقارئ الكريم يستطيع - بكل يسر - أن يعرف أسباب زواجه عليه السلام منها

من العرض الموجز الذى قدمناه، وهى كبيرة الشبه بالأسباب التى دعته إلى التزوج من عائشة الصديقة بنت الصديق.

إنها التكريم والوفاء وحسن الصلة والبر والتودد إلى هؤلاء الرجال العظام الذين باعوا أنفسهم وأموالهم لله - عز وجل - ووقفوا كل حركة من حركاتهم على ما يرضى الله ويرضى رسوله، ولا يملك محمد ﷺ أن يكرمهما بما هو أعظم من مصاهرته لهما، وكفى بذلك تكريماً ووفاءً وإعزازاً.

بيد أن زواجه من السيدة حفصة يضم سبباً آخر زائداً عن الأسباب التى دعته إلى مصاهرة أبى بكر - رضى الله عنه - كما دعته إلى مصاهرة عمر بعد مصاهرة أبى بكر، ذلك السبب هو المواساة والرحمة والإحسان إلى حفصة لكرم أبيها واستشهاد زوجها وحسن بلائه فى الإسلام، ولتقواها هى وصلاحها فى الدنيا والدين.

وأنجز الله ما وعد رسوله، تزوجت حفصة من هو خير من عثمان، وتزوجت عثمان من هى خيرٌ من حفصة، وهى أم كلثوم - بنت محمد رسول الله ﷺ - ذلك هو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال الذى يردده خصوم الإسلام .

* * *

(٥)

السيدة زينب بنت خزيمة - رضى الله عنها

السعد وعد، كما يقول المثل، وفضل الله نفحة من نفحاته الكريمة يؤتيه الله لمن يشاء من عباده لسر هو - وحده - به عليم، وممن شمله الله بفضله السيدة زينب بنت خزيمة الهلالية من بنى هلال، أقصر أمهات المؤمنين مقاماً فى بيت النبوة وعلى رغم صغر سنها (ماتت وعمرها ثلاثون سنة)، لم يكن زواج النبى منها لمطلب جسدى فانٍ كما يروج مكسيم رودنسون ومشايعوه، بل كان السبب فى التزوج منها هو المواساة والرحمة والحماية وحسن الرعاية.

فقد كان زوجها عبد الله بن جحش ابن عمة رسول الله ﷺ، وأخو زينب بنت جحش التى تزوجها رسول الله فيما بعد بأمر من الله لحكمة سنذكرها عند الحديث عنها، مات عبد الله بن جحش شهيداً فى غزوة أحد، فسارع ذو القلب الرحيم والوفاء الكريم فخطبها لنفسه لتكون واحدة من أمهات المؤمنين الطاهرات العفيفات، فالمواساة التى عرفناها سبباً فى تزوجه من قبل كانت سبباً هنا كذلك.

يضاف إلى هذا سبب آخر فى السيدة زينب ذاتها، سبب منشؤه الإيمان الخالص بالله، والتصديق بوعده الكريم لعباده المحسنين.

فقد عرفت هذه السيدة الجليلة بحبها للفقراء والمساكين والعطف عليهم وبرهم والإنفاق عليهم فى السر والعلن حتى لقبوها بـ(أم المساكين).

وهذه المحامد لها عند أولياء الله كبير وزن وعظيم تقدير فمن حقها - إذاً - أن يزدان بها البيت النبوى، وأن تُكرَّم هى بالانتساب إليه، وتكون لبنة فى صرحه الشامخ ولا سبيل إلى ذلك، إلا أن تكون زوجاً لأبى المؤمنين محمد ﷺ.

حظيت السيدة زينب بنت خزيمة بالانتماء إلى البيت النبوى العامر بذخائر الإيمان.

ولكن مقامها فيه لم يطل فماتت بعد شهرين أو ثلاثة أشهر على الأكثر، ولكن السعد وعد كما تقدم، وقصر المدة التى قضتها حية أماً للمؤمنين جدير بأن يسقط حسبانها من سجل تعدد الزوجات فى سيرته ﷺ، ولكن الباحثين عن بقع سوداء فى قرص الشمس، وهم المبشرون والمستشرقون ومشايعوهم يصرون على أنها كانت مظهراً من مظاهر المتعة، والشهوة التى يدعون أن النبى ﷺ كان مغرماً بها، واقفاً حياته عليها.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً﴾ [الكهف: ٥]، والسيدة زينب (أم المؤمنين وأم المساكين)، هى الثانية التى توفيت فى حياة النبى - عليه السلام - بعد السيدة خديجة - رضى الله عنها.

وأسباب التزوج منها تخلو - كما رأيت - من اعتبار الشهوة والمتعة، وبهذا يظهر لك تهافت خصوم الإسلام حين يتحدثون عن حقائق الإسلام.

* * *

(٦)

السيدة أم سلمة - رضى الله عنها

أم المؤمنين أم سلمة هند بنت أبى أمية بن المغيرة كانت من فضليات نساء الإسلام قبل زواجها من النبى ﷺ، وذات ماضٍ ناصع فى ظل الإسلام، ولها نسب عالٍ فى قومها من جهة أبيها ومن جهة أمها عاتكة بنت عامر بن ربيعة.

وقد حظيت بزوجٍ حاز من مناقب الفضل ما هو موهوب ومكسوب، فهو ابن عمة النبى - عليه السلام - أمه برة بنت عبد المطلب بن هاشم، وأخو النبى من الرضاعة، هذا هو الفضل الموهوب، الذى ليس للعبد فى تحصيله حيلة.

أما الفضل المكسوب فقد كان من السابقين الأولين إلى الإسلام وهاجر إلى الحبشة مع المهاجرين الأوائل ومعه هند زوجه، حيث ولدت له ابنه (سلمة) فى أرض المهجر، بعيداً عن الأهل ثم عادا إلى مكة بعد إنهاء المقاطعة التى فرضتها قريش على النبى ومن بقى معه من المسلمين.

ولما تمهدت السبل للهجرة العظمى إلى المدينة أذن لهما النبى

بالهجرة، وفى الطريق انتزعهـا أهلها وهم على الشرك من زوجها ومعها ابنها سلمة، ثم أذنوا لها بـاللحاق بزوجها بالمدينة فهاجرت إليها.

وكان لزوجها بلاء حسن فى الإسـلام، وقد عقد له النبى ﷺ لواء القيادة لبعض الحملات العسكرية.

وكان ممن شـهد بدراً وأسهم فى تحـقيق الانتصـار العظيم على الشرك والمشركين.

كما شهد غزوة أحـد، وأصيب بجرح غائر برئ منه حيناً، ثم عاوده مرة أخرى، وكان سبباً فى موته شهيداً.

وقد حضر وفاته النبى ﷺ، وكان مما قال فى لحظة الوفاة:

«اللهم اخلفنى فى أهلى خيراً» وسمع النبى هذا الدعاء الصاعد من أحد العباد إلى رب العباد.

وترك لأم سلمة عيالاً ترعاهم، منهم سلمة الذى عُنى به النبى - عليه السلام - حتى زوجه من أراد.

وبعد انقـضاء عدة الوفـاة سارع أبو بكر لخطبتـها رحمـة بها، ومواساة لها فرفضت.

فسارع عمر بن الخطاب ليخطبها لنفسه تكريماً ومواساة فرفضت كما رفضت خطبة أبى بكر من قبل.

ثم خطبها رسول الله ﷺ فاعتذرت بأنها مسنة، وأنها غَيْرى، وأم عيال.

فرد النبى اعتذارها بأنه هو أسن منها، وأما عيالها فلهم الله ورسوله، وأما الغيرة فسيذهبها الله إن شاء الله عنها.

ولم يكن بد لأم سلمة من قبول الزواج من النبى - عليه السلام - فى شهر شوال من السنة الرابعة من الهجرة.

كان عمره الشريف حين بنى بأم سلمة يناهز السابعة والخمسين، وهى سن تخبو فيها الغريزة الجنسية عادة وهى - وإن بقيت - فقد ذهبت حدتها، وكاد الطبع أن ينساها، أو لا يقيم لها وزناً إذا تذكرها، وكانت أم سلمة قد جاوزت سن اليأس، فهل يكون من المعقول أو من المقبول أن يقول أولئك الحقدة إن الهوى والميل الجنسى هو الذى حمل محمداً ﷺ على التزوج من أم سلمة المرأة العجوز؟ أهؤلاء ينسبون إلى حظيرة العقلاء؟

لو جاز فى حكم العقل أن يتهم طفل دون العاشرة بالصبوة إلى الإناث ما جاز أن يتهم رجل مثقل بالأعباء والمهام الجادة فى الحياة تجاوز من العمر الخمسين بمثل ما اتهم به هؤلاء الدجالون محمداً ﷺ.

لكن كفرهم بالحق الذى جاء به، وحبهم للباطل الذى خذله وفضحه وعرَّاه، هذان العاملان، مع ما تولد عنهما من حسدٍ هُمَا

اللذان أمليا عليهم هذا الهراء الذى يخجل منه المجانين.

وصدق الشاعر الذى قال فى تحليل هـذه الظواهر نفسياً قبل أن يُوْلَدْ علم النفس الحديث بمدارسه ومناهجه:

وعين الرضا عن كل عـيب كليلة

ولكن عين السخط تُبْدى المساوياً

* * *

(٧)

السيدة زينب بنت جحش - رضى الله عنها

لزواج النبى ﷺ من السيدة زينب بنت جحش - رضى الله تعالى عنها - سبب يباين كل الأسباب فى تزوجه من جميع أمهات المؤمنين، من سبق زواجهن منه زواجها ومن لحق زواجهن منه زواجها.

ومع ظهور هذا السبب ظهور الشمس فى رائعة النهار ومع بُعْدِه كل البعد عن مزاعم المبشرين والمستشرقين حول تعدد زوجات النبى، مع هذا كله فإن لهم حوله لغطاً وضجيجاً وصخباً عالياً لم يثيروه فى سواه من زيجاته كلها.

ومع سعة لغطهم حوله فإنهم مدينون كل الإدانة، حيث استعملوا فيه سلاحاً ذا حدين، كلا حديه طاعن لهم طعنات قاتلة، وفى نفس الوقت فإن براءة محمد - عليه السلام - ثابتة ثبوت الجبال.

ولابد من تمهيد نذكره فى إيجاز شديد، خلاصته: كان فى الجاهلية عادة استمر العمل بها فى صدر الإسلام، وهى أن الرجل

إذا تبنَّى غلاماً ألحقه بنسبـه، ودعاه ابنه غافلاً اسم أبيه، ثم عامله معاملة ابنه من صلبه فيرث كل منهما الآخر إذا مات أحدهما قبل الآخر، كـما يحرم عـلى الابن «المتبنَّى» ما يحـرم على الابن من الصلب من محارم الأب، وما يحرم من حليلات الأبناء على الآباء.

رسـخت هذه العـادة فى الحيـاة، حـتى كـانوا ينادون زيد بن حـارثة مولـى رسول الله بـ (زيد بن مـحـمـد) وترتب على هذه الظاهرة تحليل ما حرَّم الله وتحريم ما أحل.

وما كان الإسلام ليهـادن هذا الخلل، وكان لابد من عمل قوى يحسم هذه الفوضى، ويرد الحق إلى نصابه، بلا ضرر ولا ضرار.

وكان ذلك الـعمل القوى الحـاسم لابد أن يخرج من بـيوتات النبى، ومن شخصه لا من شخص سواه.

فأعلم الله رسـوله أن مولاه زيد بن حـارثه ستـسخـره الحكمة الإلهيـة للتزوج من ابنة عـمة النبى زينب بنت جـحش ولابد من تنفيذ هذا الزواج، ثم إن شقاقـاً سيدب بين الزوجين، يضطر معه زيد إلى تطليق زينب، وبعد تطليقها وانقضاء عدتها من زيد يتقدم النبى لزواجها، ليعلن للمـؤمنين أن زوجات أبناء التبنى لا يحرمن على أبائهم حرمة أبناء الأصلاب.

وبذلك يقـضى الإسلام على تلـك العادة الجـاهلة، فهـذا هو رسـول الإسلام يـتزوج زينب، وقـد كـانت بالأمس زوجـاً لزيد

مولاه، الذى كانوا يعتبرونه ابناً له كإبراهيم والقاسم وعبد الله وبعد معارضة من أولياء زينب تم الزواج من زيد تحت إلحاح النبى على إتمام ذلك الزواج، ثم دب الشقاق بين الزوجين، وكان زيد يذهب إلى رسول الله ويخبره بعزمه على تطليق زينب، فينهاه عن ذلك ويقول له: أمسك عليك زوجك، يقول هذا وهو يعلم أن الطلاق لابد من وقوعه، ولكنه خشى إذا وافقه على الطلاق أن يفهم الناس بعد زواجه هو منها - كما أعلمه ربه - خشى أن يفهموا أنه ما وافقه على الطلاق إلا لرغبته هو فى التزوج بها ثم كان ما ليس منه بد، فأمر الله رسوله بالتزوج من زينب وظهر للناس جميعاً أن أبناء التبنى ليسوا كأبناء الأصلاب فى تحريم زوجاتهم إذا طلقوهن أو ماتوا عنهن على آبائهم، وهكذا قضى الإسلام على ذلك الخلل فى الاعتقاد وفى تشريع ما لم يأذن به بالله.

وقد سجلت سورة الأحزاب هذه الوقائع والمواقف الإسلامية والحكمة من هذه الظواهر فى موضعين منها:

فى الموضع الأول نعى هذه الظاهرة وشنَّع عليها، وفى هذا ورد قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِى تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ * ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا

آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾

[الأحزاب: ٤، ٥].

فى هاتين الآيتين قرر الإسلام الآداب والتشريعات الآتية:

* الزوجات لا يكن أمهات إذا قال الزوج لزوجته: أنت علىَّ كظهر أمى، أى محرمة تحريماً أبديًا.

* الأبناء بالتبنى (الأدعياء) لا يكونون كأبناء الأصلاب فى النسب والتوارث، وتحريم أزواجهم على أوليائهم وتحريم بنات وزوجات أوليائهم عليهم.

* النهى عن نسبة «الدعى» إلى غير أبيه الذى هو من صلبه فإذا لم يُعْلم أبوه نودى بوصف الأخ فى الدين أو بوصف «المولى» فلا يقال له: يا ابنى، بل يا مولاى، ويا مولاتى.

* العَفْو عن اللغو غير المتعمد، والمؤاخذة على ما تعمدته القلوب، وقد مهد لذلك التنافر بين الزوجات والأمهات، والأدعياء والأبناء من الأصلاب بتنافر أن يكون الله قد جعل للرجل الواحد قلبين فى تجويفه الصدرى.

هذا تشريع عام فى النهى عن تلك المنكرات جاءت به السورة فى صدرها لأهميته.

أما الموضع الثانى فخاص بواقعة تزوُّج زيد بزينب ثم فراقهما، وتزوُّج النبى ﷺ منهـا، وبيـان الحكمة من هـذا التدبيـر الإلهى الحكيم، وفى ذلك جاء قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْـهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَـا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَىْ لا يَـكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِـيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَـانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾ [الأحزاب: ٣٧]، قصت هذه الآية الواقـعة بتمامهـا كما شـرحناها من قـبل ثم بينت الحكمـة الإلهـية من هذا الـتشـريع الحكيم، وهى رفع الحـرج عن المؤمنين فى عـلاقاتـهم بأدعيـائهم وإباحة التزوج من زوجاتهم إذا فارقوهن بموت أو طلاق.

وهنا نصل إلى السبب الذى ترتب عليه زواج محمد ﷺ، من السيـدة زينب - رضى الله تعالى عنهـا - إنه سبب محـصور فى التـشريع الإلهى وجـعل زواج النبى من زينب هو الأسوة الحـسنة التى لا تعلوها أسـوة؛ لأن محمـدا - عليه السـلام - رسول الله وإمام الدعاة إليه، ففعله موضع إجلال وتقدير عند المؤمنين.

وبهذا الزواج قـضى الإسلام قضاءً فـورياً وحاسمـاً على عادة بغيضـة تأصلت فى المجتمع، وكان من الصعب القضـاء عليها لو لم يدبر الله الأمر على النهج الذى قدمناه.

فليست الشـهوة سببـاً فيه، هذا مـحال محال، لكنَّ المبـشرين

والمستشرقين ومشايعيهم من اليهود والملحدين تجاهلوا هذا كله، وهم يعلمون أنه الحق الذى لا مراء فيه، تجاهلوه تماماً لأنهم عثروا فى هذه الآية على عبارتين صالحتين لتحريف معناهما، وقلب المقصود منهما، فما هما هاتان العبارتان؟ وماذا قال فيهما هؤلاء الجاحدون؟

أما العبارتان فهما:

* **(وتخفى فى نفسك ما الله مبديه).**

* **(وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه).**

أما ماذا قالوا فيهما؟ فإليك البيان:

قالوا: إن محمداً بعد أن زوج مولاه زيداً من ابنة عمته زينب، ذهب ليزورهما، فرأى زينب وراعه جمالها، وقد حلت من قلبه ونفسه محل الإعجاب والفتنة، فراح يبث دواعى الشقاق بينهما ليصلا إلى الطلاق، ثم يتزوج هو بها، ولكن القرآن فضحه وكشف عما فى قلبه من وقوعه فى غرام زينب والافتتان بها.

فقد أخفى حبه فى قلبه، ولكن الله أظهره للناس حين قال: ﴿وتخفى فى نفسك ما الله مبديه﴾.

ثم لامه - يعنى لام الله محمداً ﷺ - على خشيته من الناس وعدم خشيته من الله.

وفى هذا قال الله: ﴿وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾،

هذه خلاصة أمينة لما قالوه ورددوه، وما يزالون يقولونه ويرددونه، ويخيل إليهم أنهم أصـابوا محمداً فى مقـتل أو أوقعوه فى ورطة يصعب التخلص منها.

نقد هذا الكلام:

هذا الكلام الذى قـالوه أوهى من الوهم، وهـو سهم مـوجـه إليـهم هم لا إلى محـمـد - عليه السـلام - وإليك البـيان مـرة أخرى:

إدعاؤهم بأن محمداً رأى زينب فـافتتن بها كذب صريح، لأنه ابن عمتهـا يعرفها منذ الصغر، ورآها قبل زواجـها من زيد مئات المرات، وبخاصة قـبل نزول آيات الحجاب فى السنة الخـامسة من الهجرة، فلم يك يخـفى عليه شئ من حسنها وجمالهـا يفاجأ به بعد زواجها من زيد، فما أكثر التزاور والاختلاط بين الأسر ذوات الأرحام، ولو كان لمحـمد رغبة فيـها لأسرع إلى خطبتـها قبل أن يعرف زيد بن حارثة، بل وقبل أن يعرف أباه حارثة، وهذه المقولة مفتراة ليس لـها أساس تاريخى صحيح، فهل كان قـائلوها أحياءً فى ذلك العصر فقالوا مـا رأوه هم بأبصارهم، أو سمعوه من زيد أو زينب بآذانهم؟

ثم لو فرضنا - جدلاً - أن هذا قد حـدث، وأن محمداً أحب زينب لما رآه من جمالها، وأنه أخفى حبه إياها وطمعه فى التزوج منها، لو فرضنا جـدلاً صحة هذه المزاعم فإن الخاسر الوحـيد فيه

هم قائلوه من خصوم الإسلام، وذلك لأن حملات التشهير التى يشنونها على محمد ﷺ غرضهم الوحيد منها هو إسقاط الإسلام بسقوط محمد من جرَّاء حملاتهم عليه.

فلا رسالة ولا نبوة ولا قرآن، بل كل ذلك من افتراءات محمد - حاش لله - على زعمهم.

وهذا الذى قالوه يثبت عكس ما ادعوه:

لأن القرآن لو كان من عند محمد لما فضح نفسه بإفشاء أسراره التى يلام عليها.

ثم إن قولهم: إن الله فضح محمداً وعرَّاه، فإن معنى ذلك عندهم أنهم يؤمنون بأن القرآن وحى من عند الله، وبذلك نراهم يحكمون على أنفسهم بالكذب فى كل ما يقولون، لأن القرآن إما أن يكون من عند الله، وإما أن يكون من عند محمد، فأى الأمرين عندهم هو الصواب، وقد قالوا مرات: إن القرآن من تأليف محمد، وهنا يقولون إن القرآن من عند الله، وباعتبار تسليمهم بأن القرآن النازل من عند الله فضح محمداً وأفشى أسراره «الغرامية» فيلزمهم أن يعترفوا بصدق محمد وشجاعته وأمانته؛ لأنه بلَّغ القرآن للأمة وفيه ما فيه من إفشاء أسراره التى يسوؤه إفشاؤها، ورجل فى هذه المكانة من الصدق والأمانة والشجاعة أرفع شأناً من أن يكون زير نساء..

* * *

(٨)

السيدة جويرية بنت الحارث رضى الله عنها

العـامان الرابع والخـامس الهجـريان كـانا حافلين بالأحـداث والوقائع الجسام فى المدينة وما حولها، وطمع الطامعون فى توجيه ضربات يرجـون منها قصم ظهر الـدولة الإسلامية الناشـئة، تلك الدولة التى قـامت للقضـاء على قـوى الباطل ومـعاقل الشـرك والوثنية.

فكانت غزوة الأحزاب نافرة من وسط الجزيرة إلى شمالها لتدك صرح الإسلام فى المدينة.

وكان تخـاذل المنافقين وانفـلاتهم من جيش الدفـاع عن المدينة الذى خرج لملاقاة العدو قبل الاقتحام، وأحدثوا بذلك شروخاً فى بناء القوة التى خرجت للدفاع عن الحرمات، وكان مكر اليهود فى المدينة ومحاولتهم نصرة قـريش على المسلمين ناقضين العهد المبرم بينهم وبين النبى ﷺ الذى عـقـده بعد قـدومه إلى المدينة ورعـاه المسلمـون حق الرعاية، ولكن يد الله كـانت مع النبى وصحـبه، فـزلزل الله الأرض تحت أقدام قـريش وحلفـائهـا، وهزمهم شـر هزيمة.

ثم التـفت المسلمـون نحو يـهود «الخـيانـة» وحاصـروهم فى حصونهم حتى اضطروا للتسليم ومغادرة المدينة.

وما كـاد العـرق يجف والسيـوف تغمـد حتى وردت الأخـبار للنبى بأن بنى المصطلـق كوّنوا جـيشـاً وهم فى الطريق إلى المدينة لمحـاربة النبى والمسلمين، فـجـهز رسـول الله ﷺ جـيـشاً قـوياً لملاقاتهم، وهزم المسلمون بنى المصطلق، وأسروا منهم ما أسروا، وجبوا من الغنائم ما جبـوا، وتلاحقت بشريات النصر على النبى وصحبه، ورفرفت رايات الانتصار تهتف بحمد الله على ما وهبهم من النصر والتأييد.

وكان ممن وقع فى الأسـر من نساء بنى المصطلق ابنة سـيد بنى المصطلق (الأميـرة): برة بنت الحارث بن أبى ضـرار، وقعت فى سهم ثابت بن قـيس، فكاتبته على نفسـها ليطلق سراحهـا وتعود حرة كما كانت[1].

هذه مخـاطرة أقدمت عليهـا برة، ولـم تكن تملك قيمـة الفدية التى تعهدت ببذلهـا لسيدها، إنها غريبة فى بلد غـير بلدها فماذا تَفْعَلُ؟

هداها تفكيـرها إلى أن تذهب إلى نبى الرحـمـة، ولم يمنعهـا

---

(١) كاتبته: أى تعـهدت له بدفع فدية من المال تدفعه له فى نظير إخـلاء سبيلها وعتـقهـا من الأسر، والمكاتبـة أو الفداء إحـدي الطرق المشروعـة فى فكاك الأسرى.

عداء قومها للنبى والخروج لمحاربته أن تقصده وترجو منه أن يزيل كربها، فتوجهت إليه وهو فى غرفة عائشة أم المؤمنين، واستأذنت فى الدخول عليه، وكلها أمل أن نبى الرحمة سيزيل ما بها من كروب.

قالت له بعد أن قصت عليه قصتها: جئتُك استعينك على أمرى.

فرق لها قلبه الرحيم، وتحركت فى نفسه مشاعر العطف والمواساة، وإزالة عثرات ذوى المروءات من الناس، فقال لها رسول الله ﷺ: «هل لك فى (ما هو) خير من ذلك»؟

قالت: وما هو؟

قال: «أقضى عنك الفدية وأتزوجك».

قالت: وهى تكاد تطير من الفرح والسرور: «نعم يا رسول الله».

ثم قدم أبوها سيد قومه بنى المصطلق، وعرض على النبى ﷺ أن يدفع فديتها وتذهب ابنته معه، فقال ﷺ: «أرأيت إن خيَّرتها أليس قد أحسنت»، قال أبوها: بلى - يعنى قد أحسنت - فسألها أبوها فقالت: «اخترت الله ورسوله».

إنها سارعت إلى إعلان إسلامها فور أن تعهد لها رسول الله ﷺ بدفع فديتها.

وها هى ذى تكرر إعلان إسـلامها فى حـضور أبيها أمـير بنى المصطلق، ثم تتوالى المفاجآت السارة:

* فهذا أبوها لـم يلبث أن يعلن إسلامه فقـال يخاطب رسول الله ﷺ: «أشهد أنك رسول الله حقًا».

* ثم يسرى خبر زواج النبى ﷺ من الأميرة ابنة أمير أو ملك بنى المصطلق، فيسارع المسلمـون إلى عتق كل أسرى بنى المصطلق؛ لأنهم أصبحوا أصهار رسـول الله ﷺ، وقد عمت الفرحة مائة بيت فى بنى المصطلق ينتمى الأسرى إليها.

* ويعـود الأسـرى إلى موطنـهم ويسرى الخـبـر فى بيـوت بنى المصطلق فـيدخلون فى الإسـلام جـميـعاً، بعـد أن سحـرتهم سـماحـة وأخلاق الرسـول الكريم وأصحـابه الأبرار، ولذلك عُدَّت برة أعظم النسـاء بركة على قومـها، وكفى أنهم اعـتنقوا الإسلام جميعاً بسببها.

وغيَّر النبـى اسمها من برة إلى «جويرية» وعـرفت بهذا الاسم الجديد، ونسى النـاس اسمهـا الأول «برة» إلا كتاب السـيرة حين يقصون قصتها.

هذه هى قصـة زواجه ﷺ من جويرية بنت الحارث سـيد بنى المصطلق، والقارئ الكريم يستطيع - بكل وضـوح - أن يستخرج من وقائع القصة السبب النبيل الذى حمل محمداً على التزوج من

جويرية - رضى الله عنهـا. إنه الرحمة والمواساة، وإقـالة عثرات ذوى المروءات وأن مـا ترتب على هـذا الزواج من دخـول بنى المصطلق جميـعاً فى الإسلام ليدفع بكل قوة وحسم تلك الـتهمة التى تمالأ خصوم الإسـلام على إلصاقها بصـاحب الرسالة الخاتمة من أنه ما توسَّع من دائرة التزوج بالنساء إلا لفرط ميوله إلى إشباع شهوته الجنسـية؟ فما أبعد سـيرته الطاهرة عن هذا «الوحل» الذى يحاول هؤلاء الكارهون لما أنزل الله أن يلطخـوا به سيرته العطرة، وهم فى هذه المزاعم يمدحونه من حيث أرادوا أن يذموه، فهب أن محمـداً ﷺ كان ذا ميول عارمـة للمعاشرة الزوجيـة، فكفاه نبلاً وشرفاً وطهارة أنه سلك فى إشباعها مسلك الزواج الحلال العفيف النظيف.

وهم حين يروجـون عنه هذه الأباطيل يعـيشـون فى بيئـات لا تعرف للعفـة والطهارة طريقاً، وإنما تعرف إشـباع هذه الغرائز عن طريق المخادنة، أو تحت غطاء الحرية الشخـصية مع تفشى الدعارة فى مدارسهم ومـعاهدهم حتى بين الناشئين والـناشئات، والأبناء غير الشرعيين فى مجتمـعاتهم تفوق نسبتهم فى بعض الدول نسبة الأبناء الشرعيين؟

* * *

(٩)

السيدة صفية بنت حُيىّ - رضى الله عنها

بعد إجلاء قبائل اليهود من المدينة لخيانتهم الأمانة، ونقضهم العهود التى أبرموها مع النبى ﷺ، صار لهم وجود خطير فى «خيبر» وبيتوا النية على الغدر بالمسلمين وإيقاع الأذى بهم لا لذنوب جنوها، ولكن لأنهم مسلمون؟!

وفى العام السابع من الهجرة المباركة إلى المدينة عقد النبى العزم على ردع اليهود الذين اتخذوا من خيبر مركزاً للتآمر على المسلمين ولكنهم احتموا بحصونهم فحوصروا مدة، ثم اقتحمت حصونهم وأوقع بهم المسلمون هزيمة منكرة.

قتلوا فرسانهم، وسبوا نساءهم وذراريهم، وأسفرت المعركة عن انتصار عظيم للمسلمين، وهزيمة نكراء لمعاشر اليهود.

وما إن وضعت الحرب أوزارها، إذًا بالجميع يفاجأون بأن صفية بنت حُيىّ بن أخطب - ابنة سيد اليهود - تقع فى الأسر وتساق مع نساء اليهود الأسيرات.

هذا وقد بدا عليها الذهول والوجوم لما مُنى به قومها، وما حل

بديارهم من خراب، فقد تبدَّلت الأحوال فى لمح البصر بالأمس كانت «أميرة» ترفل فى حلل النعيم، وحولها الخدم والحشم، والآن أمست «أسيرة» وحيدة لا تدرى ما خبَّأ لها القدر من مصير، وحرمان الأغنياء عذاب، وذل الأعزاء جحيم.

إن الذى بقى من يهود خيبر هم الشيوخ الفانون، والعجزة والنساء والأطفال، فما عساها تفعل وقد تجردت من كل حول وطول وصار أمرها بيد غيرها بعد أن كان أمر غيرها بيدها منذ ساعات قصار، وهكذا يجعل الله الأيام دولا بين الناس، وتبدُّل الأحوال هى السنة المطردة فى الحياة.

وَوُزِّعَتْ السبايا فوقعت «صفية» فى سهم لغير رسول الله ﷺ، ولكن عقلاء القوم أنزلوها منزلتها فجعلوها فى سهم رسول الله، لأنها كانت عزيزة مرموقة فى قومها، لأنها ابنة سيدهم.

كانت فى سن السابعة عشرة، تزوجت مرتين، وقتل زوجها الثانى فى المعركة الأخيرة التى سُبِيَتْ فيها صفية وكان اسمه: كنانة ابن الربيع.

فنظر إليها رسول الله ﷺ وقرأ فى وجهها ما يجول فى نفسها من هموم وغموم وخوف من المجهول، كتمت أحزانها وتحكمت فى عواطفها، لم تصرخ أو تلطم وجهاً أو تشق ثوباً أو تنكش شَعْراً كما كانت تفعل سبايا اليهود، بل لزمت الصمت الوقور مع صغر سنها، وكما قال الرسول ﷺ:

«الناس معادن: خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام، وشرارهم فى الجاهلية شرارهم فى الإسلام».

تجمعت كل هذه المعانى فى قلب نبى الرحمة، فَرَقَّ قلبه لصفية وقال لها:

أعتقك وأتزوجك، وإن شئْت أن ترجعى إلى أهلك فارجعى، فزال ما بها من هم وغم وكرب، وأسرعت تقول للنبى ﷺ:

«كنت أتمنَّى هذا فى الشرك فكيف إذَا أمكننى الله منه فى الإسلام».

وقضى الله أمراً كان مفعولاً.

ثم قصت عليه رؤيا وقعت لها، قالت:

ليلة أن بنى بى كنانة بن الربيع أبصرت وأنا نائمة أن قمراً هوى فاستقر فى حجرى، فقصصت الرؤيا على زوجى كنانة، فلطمنى لطمة ما يزال أثرها مكدوماً فى وجهى ثم أرته أثر اللطمة ثم قالت: وقال لى: إنَّك تتمنين ملك الحجاز محمداً، أن يكون لك زوجاً؟ وها هى ذى الأيام تثبت صدق ما غاظ ذلك اليهودى فأعرس بها عليه السلام، وَعُدَّتْ أُمًّا من أمهات المؤمنين، والسعد وعد كما قلنا من قبل فى زواجه عليه السلام من أم المساكين، التى لم تعش فى كنف النبوة أكثر من تسعين يوماً، وظل الرسول وفيًا لها حتى لحق بالرفيق الأعلى، يدافع عنها بين زوجاته لأنها

غريبة ولأن اليهودية أصلها، وكانت ديانتها، وما يزال الانتماء إلى اليهود مغمزاً وذماً.

تُرى ما السبب الذى من أجله تزوج النبى السيدة صفية بنت حُيىّ؟ وهو فى السابعة والخمسين من عمره المبارك إنه المواساة والرحمة، وإعزاز عزيز قوم ذل، أو إقالة عثرات ذوى المرءوة، وفوق ذلك كله إرادة الله الكبير المتعال، ذلك هو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال، أما أن يكون السبب هو إشباع الغريزة الجنسية كما يزعم المبشرون والمستشرقون، فهو محال محال. . محال لما قدمناه من السبب الحقيقى.

ومحال لأن صاحب الرسالة كان فى السابعة أو الثامنة والخمسين من عمره، مع شدة اشتغاله بشئون الدولة والدعوة ولم يجرب عليه الناس تهالكه على إشباع الغريزة الجنسية، وهو فى فورة الشباب، فكيف يخضع لها وهو فى حكمة الشيوخ؟!

* * *

(١٠)

السيدة أم حبيبة – رضى الله عنها

لم يكن أمام المسلمين الأوائل للنجاة من فتنة قريش لهم بمكة، إلا أن يفروا بدينهم عملاً بتوجيهات النبى لهم، فهاجر فريقٌ منهم إلى الحبشة، ثم لحقت بهم طائفة أخرى، فيما عرف بالهجرة الثانية إلى الحبشة، وكان فيها زوجان فى بدء حياتهما الزوجية، رملة بنت أبى سفيان، وعبيد الله بن جحش ابن عمة رسول الله ﷺ أسلم عبيد الله، فأسلمت رملة، وخشيت أن يفتنها أبوها أبو سفيان عن دينها فهاجرت هى وزوجها مع من هاجر، وكانت تعانى متاعب الحمل لأول مرة.

وما كادت تستقر بهما الأحوال فى المهجر حتى رأت فى منامها رؤيا تتعلق بزوجها، رؤيا فزعت منها رملة، حيث رأت زوجها فى صورة أسوأ ما تكون، وإذا بزوجها يرتد عن الإسلام ويعتنق النصرانية دين الأحباش، ويحاول أن تقتدي به زوجته فترتد عن الإسلام لكن محاولاته باءت بالفشل.

فما كان منه إلا أن هجرها، وآثرت هى الوحدة والفقر مع الإسلام على الكفر مع الراحة والمال، لأن الإسلام إذا ذاق

حلاوته مؤمن لا تقبل نفسه سواه، وإن أزيلت الرؤوس، وحزت الرقاب، صارت رملة وحيدة فى بلد بعيد غريب، محال أن تعود إلى مكة؛ لأن معنى ذلك أن تقع تحت وطأة أبيها زعيم الكفر فى مكة، وأعدى أعداء الإسلام.

وزاد من وطأة الهموم عليها أن وضعت ابنتها «حبيبة» التى لم تر أباها ولم يرها أبوها.

سمع النبى ﷺ بما حدث لرملة «أم حبيبة» وبما كان من زوجها الذى باع دينه بدنياه، وأدار ظهره لزوجته ولم يرق قلبه من أجل وليدته.

وما كان منه أمام هذه الكوارث الثقال إلا أن يحرر رسالة كريمة ينقذ بها رملة وحبيبة من الوحشة والوحدة والاغتراب، حرر هذه الرسالة إلى «النجاشى» ملك الحبشة، يوكله فيها عن نفسه فى عقد زواجه من أم حبيبة ويقول له: أرسل إلى رملة أم حبيبة أن توكل أحد المهاجرين عن نفسها ليحضر مجلس العقد، فقام النجاشى بالمهمة خير قيام، وسرى خبر زواج النبى من رملة سريان أشعة الشمس فى ربوع البلاد، وعلا البشر وجه رملة ووجوه كل الذين حزنوا من أجلها، وأهداها النجاشى هدايا كريمة، وسارعت فضليات النساء فى الحبشة فى الإهداء إلى رملة، وانهالت عليها عبارات التهنئة بأعظم زواج وأغلى زوج ﷺ.

وشعرت أم حبيبة بالراحة والسعادة تغمر قلبها، وانقشعت

السحابة السوداء التى حجبت عنها الرؤية ردحاً من الزمن ومع بُعْد الزوج عن العروس، وغربة العروس عن الزوج فإن سحر الروابط الدافئة جعلها تشعر كأنها تعيش مع زوجها العظيم فى غرفة واحدة، وكفاها شرفاً أنها صارت واحدة من أمهات المؤمنين، والسعد وعد، وما أعظم المحن التى يتولد عنها هذا الخير المشرق، إن أم حبيبة لم تغنم الأمان فى هذه الدنيا الزائلة فحسب، بل غنمت الأمان فى الدار الآخرة التى لا فناء بعدها.

ومن حكمة الرسول الحكيم أنه أسرع بالتزوج من رملة غيابياً ولم يتأن حتى تعود بعد أن تتبدل الأحوال؛ لأنه كان يقدر أنه لو أرجأ هذا الزواج لهلكت أم حبيبة من أشباح الخوف من المجهول، وفى طبائع البشر ضعف وإن كانوا مؤمنين، وللعزائم فتور وإن كانت قوية، وللشيطان وساوس وإن كانت أوهاماً.

وهكذا تتجلى فطنة نبى الرحمة، فيداوى الجروح الغائرة ويجبر القلوب الكسيرة، وبينه وبينها مئات الفراسخ والأميال.

وفى العام السابع الهجرى، وحين عودة الموكب النبوى المنتصر على يهود خيبر، فاجأ الله رسوله الكريم بوصول من بقى من المهاجرين إلى الحبشة، وفيهم زوجه أم حبيبة فاجأه الله بوصولهم إلى المدينة، فكان نصراً ثانياً تضاعفت الفرحة به بفضل الله، وسُرَّ النبى أيما سرور بعودة المهاجرين فى سبيل الله.

وبنى رسول الله ﷺ بزوجه رملة بنت أبى سفيان، أو «أم

حبيبة» التى عقد عليها غيابياً منذ سنين، وفى واقعة تعد هى «الوحيدة» فى تاريخ الرسل الكرام.

وكافأ الله تلك المهاجرة المؤمنة، كافأها على تحمل المشاق فى سبيل الحفاظ على إيمانها، فجعلها زوجاً لأعظم البشر على الإطلاق، وأما للمؤمنين من ساعة عقد عليها النبى غيابياً إلى أبد الآبدين، لأن الله «لا يضيع أجر من أحسن عملاً».

وهو القائل فى كتابه العزيز: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَىَ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

هذه هى قصة زواج النبى ﷺ من السيدة رملة «أم حبيبة» ابنة أبى سفيان، سقناها - كغيرها - فى إيجاز؛ لأن غرضنا من هذه القصص الوضيئة أن نستخلص من كل واحدة منها السبب الذى من أجله تزوج رسول الله ﷺ صاحبة القصة.

ومن وقائع قصة أم حبيبة تبرز لنا - بوضوح - عدة أسباب وراء هذا الزواج الميمون، وهى: المكافأة والتكريم والمواساة والرحمة، ثم الحماية وهى - كما ترى - أسباب منشؤها النبل وكرم الأخلاق والإحسان.

وليس كما قال المبشرون والمستشرقون والجهلة، وإن كان

بعضهم ممن ينتمون إلى الإسلام، ليس الأمر كما زعموا من أن تهالك محمد - عليه السلام - على الملذات الجسدية، وإرواء الشهوة الجنسية هو السبب المحرك له فى جميع زيجاته؟!

هذا أقبح افتراء يرددونه حول تعدد زوجات النبى، ولم يصح لهم دليل أو شبه دليل على ما يدعون.

وفى تزوجه عليه السلام بالسيدة أم حبيبة ما يلقمهم حجراً ويرد عليهم كيدهم فى نحورهم.

لأن عقد زواج النبى من أم حبيبة تم - كما تقدم - وهى نائية عنه فى بلاد الحبشة، وهو بعيد عنها بمئات الفراسخ والأميال، هذا من حيث المكان، أما مِن حيث الزمان فإن الزمان أعجب، فقد كان بين العقد عليها والدخول بها بضع سنين.

فهل يعقل - لو كان الباعث على زواجه منها هو الشبق - أن يصبر عليها هذه المدة؟ أما كان الأجدر به أن يتزوج فتاة حاضرة جاهزة، يُعرس بها ساعة يعقد عليها؟

عجباً - والله - لهؤلاء المبشرين والمستشرقين بأى عقل يفكرون وبأى لسان يتكلمون؟ وإلى مَنْ يكتبون ما يكتبون؟ وأقوالهم هى الباطل فى أجلى صوره.

إنها - والله ذى الجلال والإكرام - لحماقة ما بعدها حماقة، وجهل وجهالة ما بعدهما جهل ولا جهالة.

(١١)

السيدة ميمونة بنت الحارث رضى الله عنها

فى العام السابع الهجرى قصد النبى ﷺ مكة، ومعه ألفان من أصحابه، ليؤدوا عمرة القضاء تنفيذاً لشروط الصلح الذى كان قد عقده مع قريش فى العام السادس الهجرى - عام الحديبية - فدخل مكة هو وأصحابه، واعتمروا، وقضوا فيها ثلاثة أيام لم تتعرض لهم قريش بسوء، بل تركوا بيوتهم بمكة، وأقاموا فى خيام على مشارفها رهبة من النبى وأصحابه، وفى هذه المدة القصيرة أوقع الله حب رسوله البالغ من العمر ستين عاماً، أوقع الله حبه فى قلب امرأة أرمل مات عنها زوجها، ولم تستطع أن تسيطر على مشاعرها، وهى برة بنت الحارث، فحدَّثت أختها الكبرى لبابة بنت الحارث زوج العباس بن عبد المطلب عم النبى ﷺ، وهى أم الفضل ابن العباس، أول امرأة تدخل فى الإسلام بعد خديجة - رضى الله عنها.

أخبرت لبابة زوجها العباس بما حدثتها به شقيقتها برة بنت الحارث، وسرعان ما ذهب العباس إلى ابن أخيه محمد ﷺ بما أخبرته به زوجه لبابة فى شأن أختها، وكان ذلك فى اليوم الثالث

من قدومه مكة لعمرة القضاء، وهو آخر يوم مسموح له فيه بالإقامة فى مكة، حسب «بنود» الصلح الذى تم عام أول.

فوافق عليه السلام على خطبتها فى اليوم نفسه، فكان العباس وكيلاً عنه فى العقد، وكان جعفر بن أبى طالب وكيلاً عنها لأنه كان زوجاً لأختها من أمها، وهى أسماء بنت عميس، وأراد النبى أن يتم مراسم الزواج وهما بمكة، فاستمهل قريشاً مد السماح له بالإقامة «يوماً» لكن قريشاً رفضت خشية أن يدخل الناس فى الإسلام متأثرين بالنبى وأصحابه.

فخرج رسول الله ﷺ وفاء بشرط الصلح المبرم، وتمت مراسم الزواج بعد الخروج من مكة، بالمكان المسمى إلى الآن بـ(التنعيم) فكانت آخر أمهات المؤمنين، وبعد الزواج غـيَّر اسمها من (برة) إلى (ميمونة)، وهذا يذكرنا بما صنعه مع أم المؤمنين برة بنت الحارث ابنة سيد بنى المصطلق، فقد كان اسمها برة بنت الحارث فغيره إلى (جويرية بنت الحارث)، وربما كان السر وراء هاتين التسميتين أن برة بنت الحارث سماها (جويرية)؛ لأنها أجارت قومها من الأسر والشرك.

وأن «برة بنت الحارث» المكية سماها (ميمونة) ليمن الوقت الذى مكّن الله رسوله وأصحابه فيه من العودة إلى مكة والطواف بالبيت العتيق، والسعى بين الصفا والمروة بعد حرمان دام سبع سنين.

سبب الزواج من (ميمونة):

ميمونة هذه تنتمى إلى «أسرة» عريقة فى الإيمان والفضل، فشقيقتها لبابة بنت الحارث زوج عم النبى ﷺ، وأم أولاده - رضى الله عنهم - وكفاها فضلاً أنها المؤمنة الأولى من النساء بعد خديجة أم ولَدَى النبى - عليه السلام -: القاسم وعبد الله وأم بناته الأربع: رقية وسكينة وأم كلثوم وفاطمة الزهراء.

وأخوات جويرية من أمها زوجات لأبى بكر الصديق - رضى الله عنه - وحمزة بن عبد المطلب عم النبى، وجعفر وعلى ابنى أبى طالب عم النبى ﷺ.

وأختها من أمها: زينب بنت خزيمة كانت زوجاً لرسول الله ﷺ، وهى «أم المساكين» كما تقدم، ولم تمكث فى بيت النبى طويلاً إذ توفاها الله بعد شهرين أو ثلاثة أشهر من زواجه بها.

ولم يتزوج النبى أختين قط إلا زينب وميمونة والسعد وعد، يهبه الله لمن يشاء من عباده، وقد كانت ميمونة التى بنى بها رسول الله ﷺ بعد وفاة أختها زينب، كانت من أشد أمهات المؤمنين براً وصلة وتقوى، وبعد هذا نقول فى ثقة: إن سبب زواج النبى منها كان محصوراً فى أسباب كلها نبل، وهى:

التكريم، والمواساة، وجبر الخاطر، لا كما يدعى الحاقدون أنه كان زواج تهالك على المتع والملذات وإشباع الشهوة الجنسية.

وبعد هذا العرض الموجز لزيجات النبى الإحدى عشرة ﷺ نضع جدولاً نلخص فيه تلخيصاً صامتاً تلك الأسباب النبيلة وراء هذه الزيجات، ثم نعقب عليه تعقيباً قصيراً، ثم ننتقل - كما وعدنا - إلى الحديث - الموجز - عن الأسباب العامة وراء هذه الزيجات المباركات.

الجدول

م	الزوجة	أسباب التزوج منها	ترتيبها فى البيت النبوى
١	السيدة خديجة	الاستجابة لرغبتها	الأولى
٢	السيدة سودة	المواساة والرحمة والحماية	الثانية
٣	السيدة عائشة	التكريم والوفاء والمكافأة	الثالثة
٤	السيدة حفصة	التكريم والوفاء والمكافأة والمواساة	الرابعة
٥	السيدة زينب بنت خزيمة	التكريم والمواساة والحماية	الخامسة
٦	السيدة أم سلمة	التكريم والمواساة والحماية	السادسة
٧	السيدة زينب بنت جحش	التشريع ومحاربة البدع	السابعة
٨	السيدة جويرية	المواساة والرحمة	الثامنة
٩	السيدة صفية	المواساة والرحمة	التاسعة
١٠	السيدة أم حبيبة	التكريم والمكافأة والمواساة والحماية	العاشرة
١١	السيدة ميمونة	التكريم والمواساة	الحادية عشرة

هذا ما أقام عليه المبشرون والمستشرقون الدنيا ولم يقعدوها وكأن محمداً ابتدع بدعة قوم لوط شناعة وقبحاً، ومع أن زوجات النبى فى هذا الجدول إحدى عشرة فهن فى الواقع سبع فحسب، لأن خديجة توفيت بمكة، وزينب أم المساكين عاشت عنده ثلاثة أشهر ثم ماتت فهاتان اثنتان، أما سودة وأم سلمة فمسنتان لا حاجة بهما للأزواج ولا للأزواج حاجة بهما، وبقيت عائشة وحفصة وزينب بنت جحش وجويرية وأم حبيبة وصفية وميمونة، أفمن أجل سبع من الزوجات بعضهن تزوجهن الرسول فى سن الشيخوخة، أمن أجل هذا يقيم خصوم الإسلام الدنيا لأن محمداً اخترق الممنوع وكفل سبع زوجات طاهرات؟!

* * *

الأسباب العامة

أما الأسباب العامة وراء تعدد زوجات النبى ﷺ فهى تقطع ألسنة الوالغين فى سيرته الطاهرة، وسيرة زوجاته الوضيئة لأنها أسباب فى جملتها وتفاصيلها علامات سمو لا مهاوى انحطاط ومدارج كمال لا مزالق دناءات، فرجل مثل محمد ﷺ أوكل الله إليه ريادة الإنسانية جمعاء، فى حاجة إلى أعوان من الرجال والنساء.

فكفاه الله بأصحابه الكرام خلة الافتقار إلى الأعوان من الرجال وكفاه باجتماع أمهات المؤمنين فى بيته مؤنة الاحتياج إلى الأعوان من النساء.

والإسلام هداية للنوعين، واحتياج النساء إلى المعرفة الدينية فى تسيير شئونهن أشد من حاجة الرجال إلى تلك المعرفة، ولما كان الرجال أكثر حظوظاً فى الاختلاط بالنبى، وحضور مجالسه وسماع حديثه من النساء، كانت النساء - عموماً - أحوج ما يكن لبديل يسد تلك الحاجة، ويكون صادق النقل جيد الرواية عن رسول الهداية والرحمة.

* ولهذا كان من أول الأسباب العامة فى تعدد زوجات النبى تفقيه

نساء المؤمنين بلا حرج ولا تحفظ، لأن النساء كن يستحين أن يسألن النبى ﷺ عن شئونهن الخاصة، ومنها أحكام الحيض والنفاس والجنابة، فإذا سألته واحدة منهن عن بعض تلك الشئون تحرَّج هو من بسط الإجابة، واكتفى بإشارات ربما احتاجت إلى بيان وتفصيل.

فقد روت السيدة عائشة - رضى الله عنها - هذه الواقعة: «سألت امرأة من الأنصار النبى ﷺ عن الاغتسال من الحيض، كيف تغتسل، فقال عليه السلام - فيما قال -: خذى فرصةمُمَسَّكَة - أى قطعة قطن فيها طيب - فتطهرى بها، قالت: كيف أتطهر بها، وأخذت تكرر هذا السؤال، ويكرر هو الجواب، ولما لم تكف المرأة عن السؤال قال عليه السلام فى نبرة حادة: سبحان الله تطهرى بها! ثم تدخلت السيدة عائشة فجذبت المرأة إليها وشرحت لها مالم يستطع النبى شرحه حياء ووقاراً.

وتكرر مثل هذا الموقف من نساء أخريات.

وهنا تبدو لنا الحكمة الإلهية من إباحة التعدد للنبى - عليه السلام - فتكون أمهات المؤمنين معلمات لنساء الأمة وفتياتها.

لذلك كانت النساء يخرجن من بيوتهن فى غلس الظلام ليسألن أمهات المؤمنين عن بعض شئونهن الخاصة التى يمنعهن الحياء أن يسألن فيها الرجال ولو كانوا آباءهن أو إخوانهن أو أبناءهن.

* ومن الأسباب العامة التى من أجلها عدَّد النبى زوجاته أنه عليه السلام أسوة حسنة للناس جميعاً الرجال والنساء كما قال عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، **ومصادر الأسوة الحسنة به لها جانبان:**

الأول: أقواله وأفعاله وكل تصرفاته العامة خارج بيوته، وهذه يراها الناس ويشيع أمرها بين الحاضر منهم والغائب فلا تحتاج إلى إعلام.

الثانى: أقواله وأفعاله وتصرفاته داخل بيوته، وهذه تحتاج إلى نقل وتحديث، وبهذه المهمة قامت أمهات المؤمنين خير قيام، قصصن على الناس كل ما كان يدور فى بيوته فى أداب المأكل والمشرب والملبس والنوم والعبادة، بل وما كان يقوم به عليه السلام من شئون المنزل ومساعدة زوجاته فيما يحتجن فيه إلى المساعدة، فقد سئلت السيدة عائشة عما يشتغل به النبى داخل بيوته فأخبرت عن تطهره وعبادته، وكان مما أخبرت به أنه عليه السلام كان يكون فى مهنة أهله حتى إذا أُذن أو نودى للصلاة خرج إليها.

كما أخبرت أنه كان فى أوقات فراغه يداعب نساءه ويلاعبهن، فقد كان يسابقهن فى البيت فتسبقه إحداهن يوماً، ثم يسبقها هو يوماً. . وهكذا.

كما أخبرت عن صلاة تطوعه فى البيت وأنها لم تزد على ثمانى ركعات لا فى رمضان ولا فى غير رمضان.

* ومن الأسباب العـامة فى تعدد زوجاته رواية أحاديثه وإذاعـتها بين الناس، وكانت السيدة عائشـة أكثرهن رواية لحديث رسول الله ﷺ، بل كـانت من أكثـر الناس - رجالاً ونسـاءً - رواية لحديث رسول الله، ولم يزد عليها فى الرواية على الإطلاق إلا رجلان من أصـحابه - رضـوان الله تعالى عليـهم - منهم أبو هريرة، كما كُنَّ يصَوِّبن بعض الأخـطاء فى أحاديث رواها عنه الرواة من الرجال.

وكان أصحـابه يلجأون إليهن - بعد وفاته - ويسـألونهن عما اختلفوا فيه أو استشكل عليهم فيجدون الجواب الشافى لديهن.

* ومن الأسبـاب العامة توسيـع دائرة الرأى والمشورة من النوعين الرجال والنســاء، أما الرجـال فإن أصحـابه قاموا بسـد الفراغ خارج البيت، فكانت الحاجة ماسة إلى الاستئناس بآراء النساء، وهن - فى الإسلام - شقائق الرجال.

وقد أدَّت أمهات المؤمنين دوراً عظيماً فى هذا المجال ويكفى أن السيدة أم سلمة قضت على شقـاق كبير حدث بين النبى وأصحابه لا يعرف له مـثيل فى تاريخ عـلاقتهم به، وذلك بعـد أن أمضى النبى شـروط صلح الحديبـية، ثم اعـترض عليـها كل الصـحابة وأصروا على دخـول مكة بالقوة فأصبح النبى فى مـعسكر رأىٍ، وهم فى مـعـسكر رأىٍ آخـر ورفـضـوا أن يرجـعـوا إلى المدينة وعسكروا فى مكانهم فدخل النبى على زوجه أم سلمـة مهموماً،

فأشارت عليه بأن يترك القول ويعزم على العمل، فيقوم ويخلع ملابس إحرامه وينحر هديه ويحلق شعره ويتحلل من عمرته، قالت: إذا رأوك تفعل هذا أمامهم تابعوك، فعمل النبى بمشورتها، فلما رآه الصحابة أسرعوا فتحللوا من عمرتهم وقفلوا معه راجعين إلى المدينة.

فهذا عمل أو مشاركة فى توجيه السياسة العليا للدولة قامت بها أم المؤمنين أم سلمة - رضى الله عنها - وربما أن هذا الرأى لم يكن ليخطر ببال أم أخرى للمؤمنين، لذلك جعل الله رسوله يصطحب معه عام الحديبية أم المؤمنين أم سلمة، والله لطيفٌ لما يشاء.

وبمثل هذا الدور قامت السيدة صفية أيام حصار الخليفة عثمان ابن عفان فى داره، وأخذت تمد يد العون لعثمان - رضى الله عنه - بما خفف عنه عناء الحصار الغاشم.

* ومن الأسباب العامة فى تعدد زيجاته عليه السلام تلك العلاقات الوطيدة، والروابط القوية، والوئام الحميم التى تنشأ عن المصاهرة بين الأسر والعائلات، بل بين القبائل والجماعات، وما يترتب على ذلك من تعاون الناس ومواساة بعضهم بعضاً.

وقد تجلت هذه المعانى فى تزوج النبى ﷺ من السيدة جويرية بنت الحارث، فقد تحوَّل بسببه ذلك العداء المستحكم الذى كان يضمره بنو المصطلق ضد الإسلام والمسلمين، حتى حملوا السلاح لقتال النبى والمؤمنين به تحول ذلك العداء إلى وِئام ومودة بين

المسلمين وبينهم، بل كان له أثر عظيم فى اعتناق بنى المصطلق الإسلام عقيب مصاهرة النبى لهم، كما تقدم فى المبحث الخاص بالسيدة البارة جويرية بنت الحارث - رضى الله عنها.

وباختصار فإن اقتران رسول الله بكل زوجة من زوجاته كان لبنة فى بناء صرح الإسلام، ونوراً وهدىً على طريق الحق القويم.

* ومن تلك الأسباب العامة فيما هدانا الله إليه - ربط صاحب الدعوة ﷺ بأعباء الإدارة وحسن التوجيه - وجَعْلُه على صلة وثيقة ودائمة بالصبر وتحمل المشاق وحلول المشكلات الصعبة، سواء كان بين عامة الناس خارج بيوته أو فى حياته الخاصة بين زوجاته وبناته.

فمن المعلوم أنه عليه السلام كان يُقيم كل نسائه فى بيت واحد لا يفصل إحداهن عن الأخرى إلا غرفة نومها، وقد دلت التجارب على أن اجتماع زوجتين لرجل واحد، وإن فرَّق بينهما فى المنزل والمكان تُسببان لزوجهما متاعب لا طاقة له بها، وإذا اجتمعتا فى منزل واحد أحالتاه إلى نار موقدة. والرسول - عليه السلام - كان يجمع تسع زوجات فى دار واحدة، وبينهن من التفاوت فى السن والجمال والجنس ما بينهن، فإذا فرغ من شئون الدولة الكبرى خارج البيت اشتغل بشئون الدولة الصغرى داخل البيت، وكان لأزواجه أطوار وتقلبات، فقد يجتمعن عليه جميعاً ويرهقنه بالمطالب والرغبات، وكان يبيت غاضباً منهن كلهن إذا

أجمعن على أمر لا يريده.

وأحياناً يتوزعن معسكرات لكل معسكر منها شكاواه من المعسكرات الأخرى.

ولا ننسى تلك الأزمة الحادة التى نشأت بينه وبين زوجاته جميعاً - باستثناء خديجة، وأم المساكين اللتين كانتا قد ماتتا من قبل - فقد تقدمن يطلبن منه رفع مستوى المعيشة فى بيوته، لأن نساء الفرس والروم ليست بأولى منهن بالعيش الرغد، والملابس الفاخرة، والتحلى بالذهب والفضة وكل معدن نفيس، ثم أصررن جميعاً على تحقيق هذه المطالب فهجرهن جميعاً شهراً كاملاً لا يدخل على أية واحدة منهن حتى نزل فى ذلك قرآن يأمر النبى أن يخير زوجاته بين إرادة الحياة الدنيا وزينتها، فإن اخترنها طلقهن وسرحهن سراحاً جميلاً، ولهن من متع الدنيا ما شئن، أو يخترن الله ورسوله والدار الآخرة، فإذا اخترن الله ورسوله والدار الآخرة فعليهن أن يصبرن على الجفاف والحرمان وقسوة المعيشة، إلى هذا الحد تعرض النبى - عليه السلام - للمتاعب والمشاق داخل بيته، وكان المفروض ألا يلقى فيه إلا الراحة وهدوء البال وقرة العين واطمئنان النفس، ولكن الله خلق العظائم للعظماء، والشدائد لأولى العزم من الرسل، وهو إمامهم ﷺ.

ثم ظلت بيوته بعد أن اختارت زوجاته الله ورسوله كما كانت من قبل، لا توقد فيها نار، ولا يُطْهى فيها طعام الشهر والشهرين، وكان قوته وقوتهن التمر والماء؟! أليست هذه دولة

أخرى كان على رسول الله ﷺ أن يسوسها بالحكمة وسعة الصدر، وحسن التدبير، والتحلى بالصبر.

وقد كان مما عرض له فى بيت صفية أن شكت إليه من نسائه العربيات؛ لأنهن يعايرنها بأنها يهودية، فلم يحمل عصى ليحطم بها عظام زوجاته العربيات، ولم يتخاذل عن دفع الأذى عن صفية، ولكن بالحكمة التى تفتت الصخور، وتهد الجبال.

قال لصفية: ألست من نسل هارون أخى موسى؟ قالت: بلى.

قال: أليس موسى أخا هارون؟

قالت: بلى.

قال: أليس محمد زوجك؟ قالت: بلى.

قال: إذا قلن لك إنهن أفضل منك لأنك يهودية وهن عربيات فقولى لهن: كيف تكوننَّ أفضل منى وأنا أبى هارون وعمى موسى وزوجى محمد؟! فلما قالت لهن ذلك ما عايرنها بعد ذلك أبداً، وقضى محمد ﷺ على هذا الشقاق بالحكمة والموعظة الحسنة، وربما كان يغضب من إحداهن فيهجرها ولا يعود لها إلا بعد استقامة أمرها، وهكذا جعل الله رسوله الكريم محمداً فى جهاد مستمر حتى فى البيت المعد للراحة والفراغ من الأعباء الجسام، وهذا هو سر عظمته بين عامة الناس، وبين أهل بيته، لم يَخْلُ وقت من أوقاته من الجهاد الساخن والهادئ، وكان فضل الله عليه عظيماً.

* * *

كلمة الختام

قدمنا – فى إيجاز – عرضاً للأسباب الخاصة والعامة وراء تعدد زوجات النبى ﷺ، ونضيف إلى ما تقدم ثلاث حقائق لها بهذه المواجهة صلة وأية صلة:

الأولى: أن النبى ﷺ لم يعدد زوجاته فى شرخ الشباب، وإنما عددهن فى زمن الشيخوخة، ذلك الزمن الذى يعزف فيه الشيوخ عن الشهوة الجنسية التى كانوا يهتمون بها فى وقت الشباب، كما يعزف الشباب عن الرضاع الذى كانوا يحتاجون إليه فى وقت الطفولة.

الثانية: أن النبى ﷺ ما تزوَّج بكراً قط سوى عائشة، وكان عمره حين تزوجها فوق الرابعة والخمسين، فهو أب عطوف عليها، أكثر منه زوجاً تحركه الغريزة الجنسية.

الثالثة: أن الرجل الذى تستعبده الميول الجنسية والتهالك عليها يكون من أصحاب الإسراف فى المتع الحسية من ألوان الطعام والشراب والفراش، وقد عاش محمد حتى فى شبابه عازفاً عن هذه المتع الرخيصة، والملذات الفانية، وتحمل المشاق فى جميع مراحل حياته، كان كما قال الشاعر فى وصف همم العظماء:

وإذا كـــانت النفـــوس كـبـــاراً

تعـبـت فى مـرادها الأجـــســـام

ذلك هو محمد فى الأولين والآخـرين، ولا نقول لحاسديه إلا ما قاله الله لأسلافهم من قبل:

﴿مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

[آل عمران: ١١٩].

○ ○ ○

الفهرس

